حول تفسير سورة

اقرأ باسم ربك الذي خلق

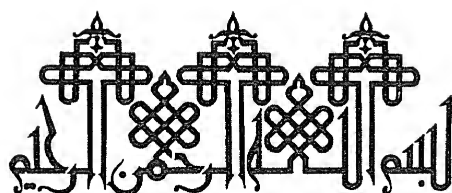
وتسمى

سورة العلق

بقلم

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح
حلب - أقيول



أيها القارئ الكريم :

اقرأ سورة الفاتحة كلما قرأت في كتاب من كتبي ، واهدِ ثوابها إلى العلامة الشهير ، والعارف الكبير ، حامل لواء الحجة بالكتاب والسنة ، المفسِّر والمحدث بالأسانيد المتصلة ، عن كبار المحدثين - في حلب ودمشق والمغرب وغيرها من البلاد الإسلامية - بإجازات عالية الأسانيد - محفوظة عندي - سيدي وشيخي والدي الكريم ، الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني ، رحمه الله تعالى ، وجزاه عن المسلمين خيرًا ، إنه هو السميع العليم

آمين

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

مطبعة الصباح
دمشق هاتف : ٢٢٢١٥١٠
عدد النسخ (١٠٠٠)

حول تفسير سورة

اقرأ باسم ربك الذي خلق

وتسمى

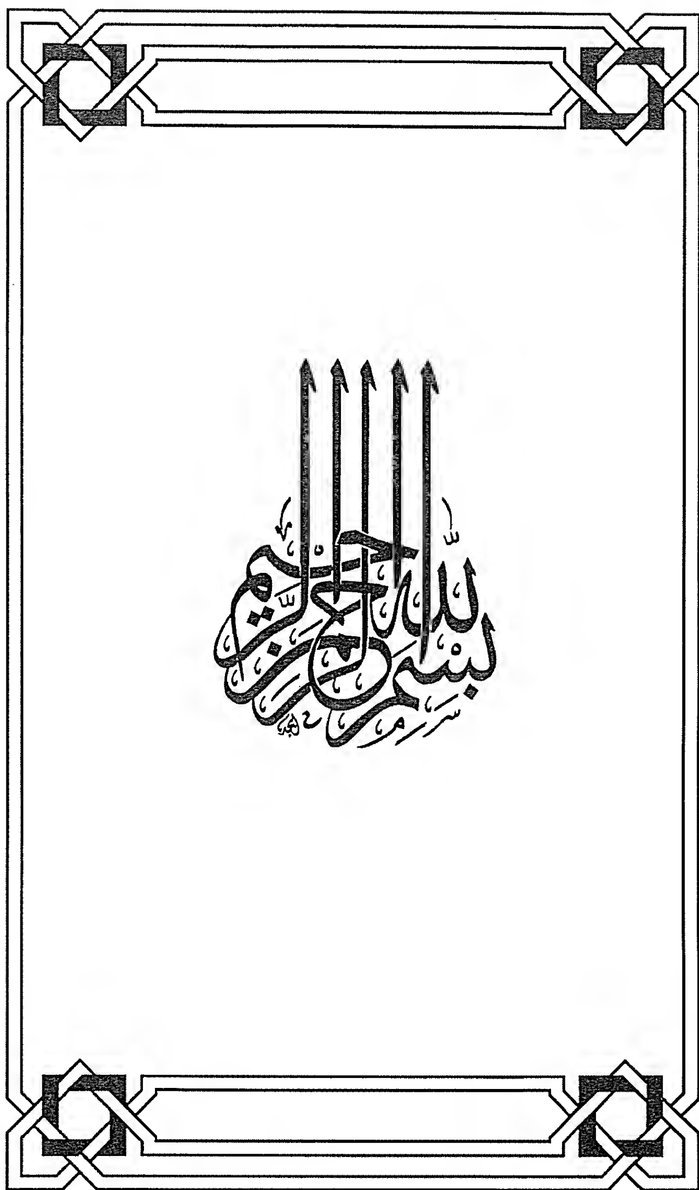
سورة العلق

بقلم

عبد الله سراج الدين

مكتبة دار الفلاح

حلب - أقيول


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ
وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ
يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ
رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾
أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن
كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ
لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ
نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ
وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا محمد إمام الأنبياء والمرسلين ، وأكرم الأَوَّلين والآخرين على رَبِّ العالمين ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه؛ وعلى جميع النبيين وآله وآلهم أجمعين.

وبعد:

فهذه سورة ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ وهي مكية ، وتسمى: سورة العلق.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ .

الكلام على هذه الآيات الكريمة له وجوه متعددة:

الوجه الأول: هذه الآيات الخمسة الكريمة هي أَوَّل ما نزل من القرآن الكريم على رسول الله ، سيدنا محمد خاتم النبيين ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

روى الإمام البخاري في: باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أنها قالت: (أوَّل ما بُديء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنَ الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رُؤيا إلَّا جاءَتْ مِثْل فَلَقِ[1] الصُّبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنَّث فيه ـ وهو التعبُّد ـ الليالي ذوات العدد، قَبْل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثُمَّ يَرجع إلى خديجة، فَيَتَزوَّدُ لمثلها حتى جاءه الحقُّ وهو في غار حراء، فجاءه الملك ـ أي: جبريل عليه السلام ـ فقال له: اقرأ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أنا بقارىء».

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَأَخذني فغطَّني[2] حتى بَلَغ مِنِّي الجَهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارىء.

فغطَّني الثانية، حتى بلغ مني الجهدَ[3]، ثم أرسلني فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بِقَارىء.

فأخذني فغطَّني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾».

---

(١) أي: واضحة جلية.

(٢) أي: فضمه بقوة.

(٣) أي: النصب والتعب.

ـ هكذا الرواية هنا ، ولكن رواه في كتاب التفسير وفيه :

﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ـ .

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ السيدة أم المؤمنين رضي الله عنها ـ فقال : «زَمِّلُوْني زَمِّلُوني» .

فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع .

فقال لخديجة : ـ وأخبرها الخَبَرَ ـ «لقد خَشِيتُ على نفسي» أي : أن لا أتحمَّل ذلك .

فقالت له خديجة رضي الله عنها : كلا والله ما يُخزيك الله أبداً ، إنَّك لتصل الرَّحِم ، وتحمل الكَلَّ[1] ، وتُكسب المعدوم ، وتَقري الضيف ، وتُعِيْنُ على نوائب الحقِّ[2] .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به وَرَقَة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرءاً قد تنصَّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني ، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب .

وكان شيخاً كبيراً قد عمي .

---

(١) قال في (شرح المواهب) : الكَلُّ بفتح الكاف وشد اللام هو من لا يستقل بأمره ، ويدخل فيه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك .

(٢) جمع نائبة ، أي : حوادثه ، وهذه جامعة لأفراد ما سبق ولغيره ، وقُيدت بالحق لأنها تكون في الحق وفي الباطل . اهـ . (شرح المواهب) والمعنى : أنَّك تعين على الأمور الحقة النافعة التي فيها الخير والبرّ .

فقالت له خديجة: يا ابن عمّ ، اسمع من ابن أخيك.

فقال له: يا ابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبر ما رأى.

فقال له ورقة: هذا الناموس[١] الذي أنْـزَل الله على موسى ، يا لَيْتَنِي فيها جَذَعاً[٢] ، ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَوَمُخرجيَّ هُم»؟

قال: نعم ، لم يأت رجل قطُّ بمثل ما جئتَ به إلاَّ عُودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نَصْراً مؤزَّراً.

ثم لم ينشب ورقة أَن تُوفِّيَ.

وفتر الوحي).

فأوَّل ما نزل من القرآن الكريم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الآيات الخمسة من أول سورة ﴿ٱقْرَأْ﴾ ثم فتر الوحي القرآني مدة من الزمن ، ثم أُنزل عليه صلى الله عليه وآله وسلم أوَّل سورة المدثر إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾.

فقد روى البخاري[٣] ومسلم ، والترمذي والنسائي ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) الناموس: هو صاحب السرِّ ، والمراد به جبريل عليه السلام ، فإنه صاحب سرّ الوحي الإلّهي. كذا في (شرح المواهب).

(٢) يريد بذلك أن يكون شاباً قوياً ليكون من أنصاره.

(٣) في التفسير والأدب وبدء الوحي ، ورواه مسلم في التفسير كما في (شرح المواهب).

وسلم قال: «جاورتُ بحراء شهراً[1] ، فلما قضيتُ جواري ـ أي مُجاورتي ـ هبطتُ فنوديتُ، فنظرتُ عن يميني فلم أَرَ شيئاً، ونظرتُ عن شمالي فلم أَرَ شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أَر شيئاً ، فرفعتُ بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فلم أثبت له ـ وفي رواية: «فرُعبتُ منه» ـ فأتيت خديجة فقلت: دثِّروني دثروني ، فأَنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾[2] فحمي الوحي وتتابع».

وهذه الآيات الكريمة هي ثاني ما نزل من القرآن الكريم عند الجمهور.

قال الحافظ في (الفتح): وليس المراد بفترة الوحي ـ أي: الوحي بالقرآن الكريم ـ وهي ما بين نُزُول: ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴾ عدم مجيء جبريل عليه السلام إليه ، بل تأخر نزول القرآن فقط ، أي: فكان جبريل عليه السلام يتردَّد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم ينقطع عنه ، ولم تزل الإمدادت الإلَهية ، والتعاليم الربانية تتوارد عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

وتفصيل الكلام على الحديث المتقدم ، وهو حديث بدء الوحي ، وما اشتملت عليه هذه الغطَّات الثلاثة ، وهي الضمَّات الجبريلية ، وما جمعته من العلوم والمعارف الإلَهية ، والأسرار

---

(١) أي: في مدة فترة الوحي ، غير الشهر الذي نزل عليه فيه جبريل عليه السلام بالآيات الخمسة؛ أوّل سورة ﴿ ٱقۡرَأۡ ﴾ كما في (شرح المواهب). ا هـ.

(٢) انظر جميع ذلك في (المواهب اللدنية وشرحها).

والمعاني الربانية ، التي نزل بها جبريل عليه السلام ، منْ عند الله تعالى الحكيم العليم ، والتي أمر الله تعالى جبريل عليه السلام أن يُفيضها ويلقيها على الحبيب الأكرم ، والرسول المعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وما هنالك من خصوصيات ومكرمات ، وتفصيل الكلام على شرح الحديث الشريف المتقدم ، سيأتي في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

والمعنى: اقرأ ما أنزل الله تعالى عليك ، مفتتحاً ومبتدأً باسم ربك الذي خلق ، فإنَّه سبحانه وتعالى هو الذي يفتح عليك ، فيقرئك هذا القرآن ، على أكمل الوجوه ، وإن كنتَ غير قارىء ـ أي: لم تتعلم القراءة والكتابة ـ فإنه سبحانه هو يفتح عليك ويعلمك ذلك ، كما قال سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾.

فقد تكفل سبحانه وتعالى أن يجمع له القرآن في صدره محفوظاً ويقرئه إياه كما يُلقى عليه ، وأَنْ يُبينه له صلى الله عليه وآله وسلم ؛ فهذه أمور ثلاثة.

جاء في الحديث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحَرِّك شفتيه إذا أُنزل عليه ـ أي يعجل بقراءة ما أنزل عليه قبل أن يُقضىٰ إليه وحيه ـ فقيل له: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ يخشىٰ أن يتفلَّت منه ، ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ أي: أن نجمعه في صدرك ـ أي: محفوظاً ـ ﴿وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ بأن تقرأه كما يُلقى إليك ، ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ﴾ يقول: أنزل عليه صلى الله عليه وآله

وسلم ﴿ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أن نبينه على لسانك[1].

فقد تكفَّل سبحانه لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن يحفظ عليه القرآن ، ويجمعه له في صدره الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن يُقرئه إياه على الوجه الذي يلقيه عليه ، بواسطة جبريل عليه السلام ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ ، وأن يُبين الله تعالى هذا القرآن الكريم لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم على أكمل الوجوه.

وقد أمر الله تعالى رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن يُبيّن للناس ما نُزل إليهم ، قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي: يتفكرون فيما جاء به هذا القرآن الكريم من البينات القاطعة ، والبراهين الساطعة ، والحِكم البالغة ، والحجج الدامغة؛ الدالة على حَقّيَّةِ وحدانية الله تعالى ، وكمالاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وعلى حقيَّة وصدق رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي أنزل الله تعالى هذا القرآن الكريم عليه ، وعلى حقية ما جاء به هذا القرآن الكريم مِنَ الإخبارات الغيبية عما مضى ، وما هو آتٍ ، وعلى حقية الشريعة الغرّاء ، وما فيها من الأحكام الصادرة عن الحكمة الإلٰهية ، وما في ذلك من الأوامر والمناهي ، وبيان الحلال والحرام ، وسائر الأحكام الشرعية ، الكافلة لجميع المصالح البشرية ، وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ونجاحهم وفلاحهم.

---

(١) هذه إحدى روايات البخاري في كتاب التفسير من (صحيحه) والحديث مروي في (الصحيحين) وغيرهما.

وقد بين ذلك كله سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بياناً كاملاً ، كافياً ، شافياً ، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ، فهو صاحب البيان عن القرآن ، على أكمل الوجوه وأحسن تبيان ، وقد جاءت بياناته في أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم المشتملة على الأقوال والأعمال ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ .

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن علقمة ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات ، والمتنمصات ، والمتفلِّجات للحسن ، المغيِّرات خَلْق الله عز وجل».

قال: فبلغ ذلك امرأة يقال لها أم يعقوب ، فجاءت إليه فقالت: بلغني أنك قلتَ كيتَ وكيتَ ـ أي: اللعن كما تقدَّم ـ.

فقال ابن مسعود رضي الله عنه: (ما لي لا ألعن مَنْ لعن رسولُ الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي كتاب الله تعالى).

فقالت: إني لأقرأ ما بين لوحيْه ـ أي: المصحف الكريم ـ فما وجدته.

فقال: (إن كنتِ قرأتيه فقد وجدتيه ، أما قرأت قول الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾).

قالت: بلى ـ أي: قرأتُ الآية ـ.

قال: (فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن ذلك).

ورواه الشيخان ، وأصحاب السنن بلفظ: عن ابن مسعود رضي

الله عنه أنه قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الواشمات والمستوشمات، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحسن، المغيِّرات خلق الله تعالى».

فقالت له امرأة في ذلك.

فقال: (وما لي لا ألعنُ مَنْ لعنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وفي كتاب الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾)[1].

وفي (الصحيحين)، عن أسماء رضي الله عنها قالت: «لعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الواصلة والمستوصلة».

الواصلة: هي التي تصل الشعر لبعض النساء بشعر غيرها.

والمستوصلة: هي التي يُعمل بها ذلك.

روى الحافظ ابن عبد البَرِّ في كتاب (العلم) له، عن عبد الرحمن بن يزيد، أنه رأى مُحرِماً عليه ثيابه، فنهى المحرِمَ.

---

(١) انظر (الترهيب) للمنذري.
قال: المتفلِّجة هي: التي تُفلِّج أسنانها بالمبرد ونحوه للتحسين ـ أي: لا للمداواة ـ.
قال: والنامصة هي التي تنقش الحاجب حتى تُرقَّه ـ أي: تجعله رقيقاً، فهذا لا يجوز إلا لمن غلظت حواجبها ـ.
والمتنمصة: المعمول بها ذلك.
والواشمة: هي التي تغرز اليد أو الوجه بالإبر، ثم تحشو ذلك المكان بكحل أو مداد ـ وهذا يقال له في البدو: الدقة ـ.
والمستوشمة: المعمول بها ذلك.

فقال: ائتني بآية من كتاب الله تعالى تنزع ثيابي.

قال: فقرأ عليه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾[1]. اهـ.

وقد حذَّر الله تعالى من مخالفة أمره صلى الله عليه وآله وسلم، قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًاۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فحذَّر وأوعدَ من يخالف أمره صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ قال ابن عباس[2] رضي الله عنهما: (يعني: كدعاء أحدكم إذا دعا أخاه باسمه، ولكن وقِّروه، وعظِّموه، وقولوا: يا رسول الله، ويا نبي الله).

وقال قتادة في الآية الكريمة: أمر الله تعالى أن يُهابَ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، وأَن يُبجَّل، وأن يعظَّم، وأن يفخَّم.

وفي رواية عنه: وأن يُسوَّد ـ أي: يُدعَى وينادى بصفة السيادة يا سيدنا[3]. اهـ.

ولا شك في أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو سيد العالمين.

فنهى الله تعالى أنْ ينادوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) انظر تفسير العلامة القرطبي.

(٢) رواه أبو نعيم كما في (الدر المنثور).

(٣) انظر تفسير ابن كثير و(الدر المنثور).

باسمه ، بدون اقترانه بتعظيم ، كما ينادى غيره ، بل يجب تعظيمه وتوقيره ، فيقولون: يا رسول الله ، يا نبي الله ، يا أكرم الخلق على الله تعالى ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وأنا أكرم الأولين والآخرين على ربي ولا فخر».

كما نهى سبحانه عن رفع الصوت في حضرته صلى الله عليه وآله وسلم ، قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ ﴾ الآية .

الوجه الثالث: قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾ .

والمعنى اقرأ باسم ربك ، فإنه سبحانه هو الذي يقرئك وإن كنتَ أمِّياً لست بقارىء ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أميَّاً ، لم يتعلَّم القراءة ولا الكتابة ، كما قال سبحانه وتعالى مخاطباً له صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ .

أي: لو كان صلى الله عليه وآله وسلم متعلِّماً القراءة والكتابة ، وجاءهم بهذا القرآن لارتاب الجهلة من الناس ، ولقالوا: إنما تعلم هذا القرآن من كُتُبٍ قبله ، مأثورة عن الأنبياء ، ومع ذلك فقد قال المبطلون الجهلة والحمقى ، قالوا ذلك ، وهم يعلمون أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو أميٌّ ، لا يحسن الكتابة ، وقد أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ .

وَرَدَّ الله تعالى عليهم افتراءهم ، ودعواهم الكذب ، فقال

سبحانه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

والمعنى: أنَّ الله تعالى هو الذي أنزله عليك، وأقرأك إيَّاه، وجمعه لك، محفوظاً في قلبك الذي هو في صدرك صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾.

وهذا من أعلام نبوته ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّ الله تعالى هو الذي تكفَّل له أن يَجمع له القرآن محفوظاً، وأنْ يُقرِئه إيَّاه كما أنزله عليه، وأن يبينه له، وأمره أن يبينه للناس، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: نقرئك إياه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾.

وقد تكلمت على هذه الآية فيما تقدم.

روى الإمام مسلم في (صحيحه) عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال ذات يوم في خطبته ـ وفي رواية: خطب ذات يوم، وفي رواية له: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم خطيباً فقال ـ:

«إنَّ الله تعالى أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علَّمني يومي هذا:

كلُّ مالٍ نحلته[1] عبداً حلال.

---

(١) أي: رزقته من طريق شرعي فهو حلال له، وفي هذا ردٌّ على المشركين الذين يحرمون بعض أموالهم على أنفسهم ويجعلونها لأصنامهم.

وإني خلقت عبادي حُنفاء كلَّهم[1] ، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم[2] عن دينهم ، وحَرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم ، وأمرتْهم أَنْ يُشركوا بي ما لَمْ أنزل به سلطاناً .

وإنَّ الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم : عربهم وعجمهم ، إلا بقايا[3] من أهل الكتاب .

وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك[4] ، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يغسله الماء تَقرؤه نائماً ويقظان» الحديث .

ومعنى : «تقرؤه نائماً ويقظان» هو كناية عن حفظه في الصدور ، فحفظه أولاً في قلبه وفي صدره صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم تلقَّتْه عنه أمته فحفظه كثير منهم في قلبه وصدره ، وحفظه كثير منهم في سَطره وكتابته ، وهكذا تتابع حفظه جيلاً بعد جيل ، وهذا من خصائص هذا القرآن الكريم ، الباقي إلى يوم الدين ، وذلك أَنَّه محفوظ في صدور هذه الأمة ، يحفظه الخاصُّ والعام ، والكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، في كل زمان إلى يوم القيامة ، لا يُزاد فيه ، ولا يُنقص منه ، حُجَّة قائمة على جميع الأمم ، تُشهدهم أنه : لا إلّه إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

---

(١) أي : على الدين الحنيف ، والفطرة السليمة الإيمانية .
(٢) أي : اجتذبتهم وكفرتهم .
(٣) أي : إلا المؤمنين المتمسكين بكتب رسلهم ، الذين أرسلهم الله تعالى إليهم .
(٤) وذلك بالتكاليف الإلّهية والأوامر الشرعية .

فهو كلام الله المعجز ، أنزله على رسوله الأكرم ، وأقرأه إياه وجمعه له وبينه له.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ الآية.

أي: لينذر به مَنْ أدركه في زمنه صلى الله عليه وآله وسلم في الدنيا ، وينذر به مَنْ بلغه بعده ممن سيأتي إلى يوم الدين ، فإنَّ القرآن الكريم باقٍ محفوظ بحفظ الله تعالى إلى يوم القيامة.

جاء في الحديث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ بَلَغه القرآن فكأنما شافهته به» ثم قرأ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ الآية[1].

* * *

(١) قال في (الدر المنثور): أخرجه ابن مَرْدُوْيه ، وأبو نعيم ، والخطيب.

حفظ هذا القرآن العظيم
في صدور هذه الأمة المحمدية
هو من الخصائص التي أكرمهم الله تعالى بها

روى أبو نعيم في (الدلائل) بإسناده، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما فرغتُ مما أمرني الله تعالى به من أمر السماوات والأرض ـ أي: في ليلة المعراج ـ قلتُ: يا ربِّ إنه لم يكن نبي قبلي إلا وقد كَرَّمْته: جعلتَ إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، وسخَّرتَ لداود الجبال، ولسليمان الريح والشياطين، وأحييتَ لعيسى الموتىٰ، فما جعلتَ لي؟

قال ـ سبحانه ـ: أَوَليس قد أعطيتك أفضل من ذلك كله؟ إني لا أُذكَر إلا ذكرتَ معي، وجعلتُ صدور أمتك أناجيل ـ أي: مصاحف ـ يقرؤون القرآن ظاهراً[1]، ولم أُعطها أمَّةً ـ أي: من قبلك ـ وأعطيتك كنزاً من كنوز عرشي: لا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم».

---

(١) أي: عن ظهر قلب.

وروى الطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «صفتي: أحمد المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، يجزي بالحسنة الحسنة ، ولا يكافىء - أي: يقابل بالسيئة - مولده بمكة ، ومُهاجَره طيبة ، وأمته الحمَّادون[١] ، يأتزرون على أنصافهم ، ويوضئون أطرافهم ، أناجيلهم - أي: مصاحفهم التي فيها القرآن - في صدورهم ، يَصفُّون للصلاة كما يصفون للقتال ، قربانهم الذي يتقرَّبون به إليَّ - أي: إلى الله تعالى - دماؤهم ، رهبان بالليل ، ليوث بالنهار» كذا في (الفتح الكبير).

لا يعذب الله تعالى قلباً وعىٰ القرآن

جاء في الحديث ، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه ، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اقرؤوا القرآن ، فإن الله تعالى لا يُعذِّب قلباً وعىٰ القرآن»[٢] .

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح): أخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح ، عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: (اقرؤوا القرآن ، ولا تغرنكم هذه المصاحف المعلقة[٣] ، فإن الله تعالى لا يُعذب قلباً وعى القرآن).

---

(١) يكثرون الحمد لله تعالى في جميع الأحوال.

(٢) عزاه في (الجامع الصغير) إلى تمام في فوائده رامزاً لحسنه.

(٣) يعني: ينبغي للمسلم أَنْ يُواظب على تلاوة القرآن بدون كسل ، ولا يكتفي بتعليق المصحف في بيته من غير قراءة فيه ، فإن المصاحف ينبغي أن تكون منشورة للقراءة فيها ، لا معلقة مهجورة.

فقلوب المؤمنين الذين يحفظون القرآن الكريم هي نعمت الأوعية المشرَّفة بكلام الله تعالى ، وحفظه فيها.

روى الترمذي ، عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «من قرأ القرآن فاستظهره ـ أي: حفظه ـ فأحلَّ حلاله ، وحرَّم حرامه: أدخله الله تعالى الجنة ، وشفَّعه في عَشَرة من أهل بيته كلُّهم قد وجبت له النار».

فالحافظ لكتاب الله تعالى ، العامل بأوامره ، والمنتهي عما نهى عنه ، هذا مضمون له أن يدخله الله تعالى الجنة ، وأن يشفِّعه الله تعالى في عشرة من أهل بيته قد وجبتْ لهم النار؛ بسبب معاصيهم ، وارتكابهم لما نهى الله تعالى عنه ، وماتوا ولم يتوبوا من ذلك.

فما أكرم حامل كتاب الله تعالى عند الله تعالى إذا هو عمل بمقتضاه ، اللهم اجعلنا منهم.

وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق، ورتِّل كما كنت ترتّل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»(١).

أي: فلا يزال يقرأ ولا يزال يترقى في المنازل العالية في الجنة ، والحمد لله على ذلك.

---

(١) قال الحافظ المنذري: رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه ، وابن حبان في (صحيحه) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. ا هـ.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الربُّ تبارك وتعالى: مَن شغله القرآن عن مسألتي: أعطيته أفضل ما أعطي السائلين، وفضل كلام الله على سائر الكلام: كفضل الله على خلقه» رواه الترمذي.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾.

أي: اقرأ باسم ربك الذي هو خالقك، ومربِّيك بعنايته الخاصَّة بك منذ صغرك، فإنَّه سبحانه هو الذي تعهَّدَ بك، ورعاك أحسن رعاية، وأحاطك بحفظه لك من دنس الجاهلية، فنشأت على الهدى والرشاد، والكمال والسداد، كما قال سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: بل هو على الهدى والرشاد، وإن قومه الذين نشأ بينهم ليعلمون ذلك، ويشهدون له أنه الصادق الأمين، ما جرَّبوا عليه إلا الصدق والأمانة.

فالله تعالى هو ربك الذي أنشأك على أكمل الأحوال، وأحسن الأخلاق، وأمدَّك وأعدَّك، وهيأك، وجعل فيك الاستعداد الكامل الخاص، وحبَّب إليك العبادة والخلوة عن الناس، لتتوجَّه بكليتك إلى ربك، ثم أعطاك النبوة الخاتمة، والرسالة العامَّة، وأنزل عليك هذا القرآن، بواسطة جبريل الأمين عليه السلام فـ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾[1].

فلقد ربَّاه سبحانه بعنايته، ورعاه برعايته، منذ صغره إلىٰ ما وراء ذلك.

---

(١) كما تقدم في حديث السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم في عين العناية ، قال الله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾ .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ ﴾ أي: اصبر على أذى أعدائك المشركين ، وقولهم: إنك شاعر أو ساحر؛ ونحو ذلك ، كما تقدم في الآيات السابقة على هذه الآية ، ولا تبال بهم ، ولا يهمنَّك أمرهم ، ولا تعبأ بهم ، فإنك على مرأىٰ من ربك ، ناظر إليك ، فهو حافظك بحفظه ، ومؤيّدك بتأييده ، وناصرك بنصره العزيز .

وقوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ قد اختُلف في المراد بهذا القيام:

فقال بعضهم: هو القيام من المجلس ، واستدلوا على ذلك ، بما رواه أبو داود والنسائي ، وابن أبي شيبة ، وغيرهم ، عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يقوم من المجلس قال: «سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أنْ لا إلٰه إلاَّ أنت ، أستغفرك وأتوب إليك» ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هي كفَّارة لما يكون في المجلس»[1] .

وقال بعضهم: المراد من القيام في الآية هو القيام للصلاة ، واستدلوا على ذلك بما جاء عن أم المؤمنين ، السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا افتتح

---

(١) انظر (الدر المنثور) .

الصلاة قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جَدُّك، ولا إلّه غيرك»[1].

وقال بعضهم: هو قيامه صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ نومه وفراشه، إلى صلاة الليل.

روى أبو داود والنسائي، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا استيقظ من الليل قال: «لا إلّه إلا أنت سبحانك أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذا هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب».

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي: صلِّ له، ويدخل في هذا قيام الليل وقت السحر، ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: وصلِّ له تعالى الركعتين قبل صلاة الفجر، وذلك حين تدبر النجوم ـ أي: تغيب بسبب انشقاق الفجر وضوء الصبح ـ.

وقد جاءت الأحاديث المتعددة في فضل الركعتين قبل فرض صلاة الفجر، أذكر طرفاً منها هنا:

عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «ركعتا الفجر[2] خير من الدنيا وما فيها» رواه مسلم والترمذي.

وعنها رضي الله عنها قالت: (لم يكن النبي صلى الله عليه وآله

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما.
(٢) المراد بهما السنة قبل فرض صلاة الصبح.

وسلم على شيء من النوافل أشد تعاهداً ـ أي: تمسكاً ـ منه على ركعتي الفجر) رواه الشيخان ، وأصحاب السنن.

وروى أبو داود ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تَدَعوا ـ أي: لا تتركوا ـ ركعتي الفجر ـ أي: السنة قبل الفرض ـ ولو طردتكم الخيل» أي: خيل العدوّ.

وفي هـذا تنبيـه إلى الحرص على أدائهـا ، والتمسـك بفعلهـا ؛ لعظم فضلها.

وبمناسبة ذكر سنة الفجر، أذكر الحديث الآتي ليستفيد المسلم، وينتفع به:

روى العلامة الخطيب[1] ، والمستغفري، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنَّ رجلاً قال يا رسول الله: إنَّ الدنيا أدبرتْ عني ـ وفي رواية المستغفري: قَلَّتْ ذات يدي[2] ـ.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «فأين أنت من صلاة الملائكة ، وتسبيح الخلائق ، وبه ـ أي: وبالتسبيح ـ يُرزقون.

قل عند طلوع الفجر ـ وفي رواية المستغفري: ما بين الفجر إلى أن تصلي الصبح[3] ـ: سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم ، أستغفر الله ـ مائة مرة تأتيك».

---

(١) أي: في رواة مالك كما في (المواهب) للحافظ القسطلاني.

(٢) أي: أصابه فقر شديد.

(٣) قال الحافظ الزرقاني: وهذه الرواية ـ أي: رواية المستغفري ـ مفسرة للعندية ـ أي: رواية الخطيب ـ فإنَّ الحديث واحد. ا هـ.

أي: فإنك إذا فعلتَ ذلك تأتيك الدنيا صاغرة، وفي رواية المستغفري: «راغمة» أي: بسهولة ويُسر.

ويرحم الله تعالى القائل:

يا مَنْ يراني في علاه ولا أراه   يا من يجيب المستجير إذا دعاه
يا مَنْ يجود على العباد بفضله   وهو الغني بذاته عما سواه

ومما يدل على عظيم إكرام الله تعالى لرسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعظيم عنايته به، وتربيته الخاصة به، التي أكرمه تعالى بها، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم على مَرأى من الله تعالى، ورعايته، وتوليته له صلى الله عليه وآله وسلم في جميع أحواله، وأموره، وأطواره، وتقلباته، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

ويدل على ذلك أيضاً قول الله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ كما سنبين ذلك إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

فقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ يبين في ذلك سبحانه

وتعالى عنايته بحبيبه صلى الله عليه وآله وسلم ، منذ صغر سنه ، وتعهده إياه ، ورعايته له صلى الله عليه وآله وسلم ، تنبيهاً إلى أنَّ الله تعالى الذي تولاه بعنايته منذ صغره ، وأتحفه بنعمه سبحانه سوف يواصل إليه بِرَّه وإكرامه ، وَيُديم عليه فضله وإنعامه ، ويحقق له ما وعده به ، ويحيطه بعنايته ، ويكلأه صلى الله عليه وآله وسلم برعايته سبحانه ، أَبَد الأبد ، بلا انقطاع ولا نفاد.

فقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ والمعنى: أنه صلى الله عليه وآله وسلم على مرأى من ربه ، وأنه سبحانه يرعاه بعين العناية الإلَهية في جميع أطواره وأحواله ، ولذلك قال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ فأعاد وأكَّد سبحانه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ﴾مع تخصيصه صلى الله عليه وآله وسلم بالخطاب ، تنبيهاً إلى أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو على مرأى من الله خاصٍّ به ، محفوف بالعناية الإلَهية الخاصَّة ، والرعاية الربانية الخاصة ، صلى الله عليه وآله وسلم.

فنشأ صلى الله عليه وآله وسلم على أكمل المعرفة بالله تعالى ، والتوحيد له سبحانه ، والعبادة لله تعالى ، والتعظيم له ، والثناء عليه ، بعيداً عن ضلال الجاهلية والشرك ، وعن الأوثان والأصنام.

كما أنه بعيد عن دنس المعاصي ، والفواحش ، وأنواع الغواية التي كان عليها الجاهلية ، معتزلاً لذلك كله ، ومبغضاً ، ومنكراً عليهم ذلك ، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي: وأنتم ـ معشر قريش وغيرهم ـ تعلمون ذلك ، لأنَّه صلى الله

عليه وآله وسلم نشأ بينكم ، فهم يعلمون صدقه ، وأمانته ، وعفته ، ونزاهته ، وترفُّعه عن سفاسف الأمور ، ولذلك سمَّوه الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم[1].

فقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ نفى عنه صلى الله عليه وآله وسلم الضلال والغواية ، وفي هذا قوة إثبات كمال الهدى والرشاد له صلى الله عليه وآله وسلم ، والمعنى: أنه صلى الله عليه وآله وسلم على أكمل الهدى ، وأكمل الرشاد والسداد.

وذلك لأن الضلال هو ضدُّ الهدى ، والغواية هي ضدُّ الرشاد.

فنشأ صلى الله عليه وآله وسلم على الهُدى في إيمانه بالله تعالى ، وتوحيده له ، ومحبته وتعظيمه له سبحانه ، وعبادته له سبحانه ، بعيداً عن جميع أنواع الكفر والشرك.

كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ على كمال الرشاد في جميع أعماله ، وأقواله ، وأخلاقه ، وأحواله ، بعيداً عن أنواع الغواية من الفواحش ، والمنكرات ، والمعاصي ، وجميع ما هنالك من أدناس الجاهلية.

وذلك لأنه صلى الله عليه وآله وسلم تربَّى على مرأى من الله تعالى ، وعنايته به ، ورعايته سبحانه وتعالى له ، وحفظه وتوليته إياه.

ولم يزل صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولا يزال في عناية الله تعالى

---

(١) انظر تفصيل هذا البحث والكلام حول تفسير سورة ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ مفصلاً في كتابي (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم).

ورعايته ، وتوليته الخاصة به ، في جميع أحواله وتقلباته في الأمور ، وعلى مرأى خاص من الله تعالى ، يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ[1] ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

فهو صلى الله عليه وآله وسلم على مرأى خاص من الله تعالى في جميع أحواله وأموره ، وهو سبحانه يراه حين يقوم من الليل يصلي لربه متهجداً ، وهو على مرأى منه سبحانه حين يصلي إماماً بجماعة المسلمين المصلين ، قائماً ، وراكعاً ، وساجداً إماماً في المصلين وراءه ـ وإنما ذكر السجود وأراد به الصلاة كلها ، لأنَّ السجود هو أقرب أحوال العبد المصلي من ربه سبحانه وتعالى .

روى الإمام مسلم وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء» .

وعن ثوبان رضي الله عنه ، أنه سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن عَمَل يُدخله الله تعالى به الجنة .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «عليك بكثرة السجود ، فإنك

---

(١) انظر ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه حول تفسير هذه الآية الكريمة في كتاب : (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والأكوان) وفيه بحث مفصل مع الأدلة على نجاة السيدين الأبوين الشريفين ، وطهارة عمود النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الكفر ، والشرك ، والسفاح ؛ وجميع الأدناس .

لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة ، وحطَّ بها عنك خطيئة» رواه مسلم وغيره.

الوجه الخامس: حول قوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾.

أي: الذي خلق كل شيء ، فهو سبحانه وتعالى الرب الواحد ، الموجد للأشياء كلها ، وفي هذا إعلام وإعلان ، وبرهان ساطع ، ودليل قاطع ، دالٌّ على أنَّه هو حق سبحانه ، أي: واجب الوجود ، وأنه واحد لا شريك له ، وأنَّه وحده الربُّ الحق ، المعبود حقاً ، ففي قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ إقامة الحجة البالغة ، والبينة القاطعة الدامغة ، على حَقِّـيَّـةِ ذلك كله.

وبيان ذلك: أَنَّ المخلوقات هي كائنة موجودة ، ومرئية مشهودة ، عالم الإنسان ، والعوالم: السماوية ، والأرضية ، والبرية ، والبحرية ، والحيوانية ، والنباتية ، وما هنالك ، فَمَنِ الذي خَلَقَها ، وأَوْجَدها ، ونقلها مِنْ ظلمة العدم إلى نور الوجود ، فإنَّـه لا بُـدَّ للمخلوق مِن خالق ، ولا بـدَّ للمصنـوع من صانـع ، ولا بـدَّ للمَبـني من بـانٍ ، ولا بـد للمتحرك من محرِّك ـ هـذا أمر معقول بديْهِيٌّ.

فهذا الإنسان لم يكن ، ثم كان ، فلا بدَّ له مِنْ مكوِّن ، وهكذا سائر العوالم كلها.

نعم: الخالق لذلك كله هو الله تعالى وحده ، كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ، وقال: ﴿ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾ الآية.

فالآيات والأدلة على حقية وجوب وجوده سبحانه وتعالى ،

ووحدانيته ، هي أدلَّة قطعية وآيات مشهودة مرئية ، وقد نبه سبحانه وتعالى وبَـيَّن جميع ذلك:

قال الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ .

والمعنى: إنَّ في عالم الأرض التي أنتم على ظهرها ، آيات دالَّة على حقية ربوبية خالقها، وعظمة قدرته، وسعة علمه وحكمته، وتلك الآيات تحمل العاقل المتبصر ، والمفكر فيها؛ على اليقين الجازم بأن الله تعالى هو حقٌّ واجب الوجود ، وأنه العليم الحكيم ، الحيُّ القيوم ، وأنه المتصف بالكمالات المطلقة التي لا نهاية لها ، على الوجه الذي لا يحيط بعلمه إلا هو سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ أي: وفي أنفسكم آيات وآيات ، تُشهدكم سعة علمه سبحانه وحكمته، وحسن صنعه ، وعجائب قدرته: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .

وهذا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

وقد بسطت الكلام مع الأدلة العقلية القاطعة؛ على أنه لا بدَّ للمخلوق من خالق ، ولا بدَّ للموجود من مُوجد ، ولا بد للمصنوع مِن صانع ، ذكرت ذلك في كتابي (هدي القرآن) وفي (تفسير سورة الإنسان) فارجع إلى ذلك.

فالله تعالى هو الربُّ المعبود حقاً وحده ، لأنه هو الخالق وحده لا شريك له ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ

وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ .

فجميع العوالم: السماوية والأرضية ، وما بينهما ، وما وراءهما ، كلُّها آيات بينات دالَّة على أنه لا إلّه إلا الله ، وكلُّها شواهد ومشاهد تدل على حقية وجوب وجوده ، وعلى سعة علمه ، وعظمة قدرته.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ أي: فتبصَّروا يا أولي الأبصار، وتفكروا فيها يا أولي الألباب ، واخترقوا بعقولكم حُجُب الأهواء الفاسدة، والآراء الكاسدة، والأوهام الباطلة، فإنَّ ذلك كله يوقع صاحبه في متاهات الظلام ، وصحراء القتام.

ولذلك حثَّ الله تعالى عباده على التفكر في خلق السماوات والأرض ، وفيما خلق الله من شيء: كبير أو صغير حتى الذرة ، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ[1] فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ﴾ الآية.

ويرحم الله القائل:

فواعجباً كيف يُعصىٰ الإلّه	أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل تحريكة وتسكينة	أبداً له شاهد
وفي كل شيء له آية	تدل على أنَّه واحد

---

(١) يقال في اللغة العربية: نظرت إلى الشيء إذا أبصرته ، ونظرت فيه إذا فكرتَ فيه. =

الوجه السادس: في الكلام حول قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

أي: أوجد وكوَّن جميع المخلوقات، وسائر الكائنات، فالمراد هنا بالخلق في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ الخلق الإيجادي التكويني.

وذلك لأن الخلق يأتي في القرآن الكريم بمعنى الإيجاد والتكوين، وهذا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ۝١٠١ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وهكذا آيات وآيات.

فالخلق بمعنى: الإيجاد والتكوين هو من صفاته سبحانه، الخاصة به، فهو الخالق وحده لا شريك له.

وقد يراد بالخلق: الخلق التصويري لا الإيجادي التكويني:

قال الله تعالى مخبراً عن سيدنا عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾.

فمعنى: ﴿أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ﴾ أي: أُصوِّر من الطين كهيئة الطير، ثم إن الله تعالى يقول لتلك الصورة: كن، عند

نفخ عيسى عليه السلام فيها ، فتكون طيراً بإذن الله تعالى ـ أي: بأمره وإرادته جل وعلا.

فالخلق المضاف إلى عيسى عليه السلام هو التصوير ، وأما تكوين ذلك طيراً فبخلق الله تعالى وإيجاده ، وحده لا شريك له.

وقد روى الشيخان ، عن عُمر رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إن الذين يصنعون هذه الصُّور يعذَّبون يوم القيامة ، يقال لهم: أحيُوا ما خلقتم» أي: ما صوَّرتم.

وقد يراد بالخلق: **الخلق التقديري** كما هو أحد القولين في هذه الآية التي نحن فيها: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فقال بعضهم: المراد به الخلق التصويري ، وقال بعضهم: المراد به الخلق التقديري ، وأما الإيجاد والتكوين فهو بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

وقد يراد بكلمة الخلق: **الاختلاق والكذب**:

قال الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ الآية ، أي: تختلقون كذباً وافتراء.

والمعنى: أن الأصنام التي تعبدونها لا تضر ولا تنفع ، وإنما اختلقتم لها أسماء ، وافتريتم ، فسميتموها آلهة ، وإنما هي مخلوقة مثلكم ، فأنتم تختلقون إفكاً ، حيث تسمونها آلهة ، وأما أسماؤها الحقيقية فهي: حديد ـ إن كانت من الحديد ـ أو حجارة ـ

إن كانت مصنوعة من الحجارة ـ ، أو نحاس ونحو ذلك حسب ما صُنعت منه.

فالله تعالى هو وحده الربُّ الإلَه الحق الخالق ـ أي: المكوِّن الموجد لجميع العوالم: المرئية وغير المرئية.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴾ أي: أين تُصرَف عقولكم ، فتفكروا في ذلك واعتبروا ، فهذه بينات وآيات ، مشهودة مرئية لديكم ، كلها تُشهدكم أنه لا إلَه إلا الله وأَنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي جاءكم بهذا القرآن المُعجز من عند الله تعالى.

وقد بين سبحانه وتعالى أنه الخلاَّق العليم ، وأنه يخلق ما يشاء ، وأنه لا يعجزه خلق شيء مهما كان ذلك الشيء كبيراً وعظيماً.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾.

فهو سبحانه لا يعجزه خلق شيء ، ولا يَعظُم عليه خلق شيء ، وهو قادر وقدير على كل شيء ، وهو عليم بكل شيء ، وعلمه محيط بكل شيء ، وكل شيء خلقه سبحانه فهو عليم به ، علماً قديماً لا أول له ولا آخر له.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾.

فالذي خلق وهو الله تعالى ، هو أعلم بما خلق ، علماً محيطاً ، قديماً لا أوله له ، ولا آخر له ، فلولا أنه سبحانه علمه

بالأشياء قديم سابق على وجود الموجودات التي أوجدها لولا ذلك لما صح عقلاً وجود الموجودات ، فإنه لا يتصور في العقل أن يوجد شيئاً لا يعلمه ، فهذا أمر بديهي ، ولذلك قال سبحانه تنبيهاً للعقلاء ، وتذكرة لمن يتذكر: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

فهو سبحانه يعلم علماً محيطاً بالواجب وجوده ، ويعلم المستحيلات التي لا يمكن وجودها ، كتعداد الآلهة ، وأن يكون له سبحانه شريك أو ولد وما هنالك ، ويعلم الممكنات التي توجد ، والممكنات التي لا توجد ، ويعلم الممكنات التي لا توجد كيف تكون لو وجدت.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟﴾ أي: الكفار يوم القيامة ﴿عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ أي: نعاد إلى الدنيا ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ فإنهم يخفون الحق ويجحدونه حين كانوا في الدنيا ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ فهو سبحانه يعلم أنهم لو ردوا وأعيدوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم وبغيهم ، وضلالهم ، مع أنهم دخلوا النار وعاينوها.

الوجه السابع: من الكلام حول قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾

أي: الذي خلق كل شيء مما يُبصرون وما لا يبصرون ، وفي هذا تنبيه للعباد وحثٌّ لهم على التفكر فيما خلق الله تعالى من شيء ، وأن كل شيء إذا تفكروا فيه دلهم على حقية وجود الله تعالى ، ووحدانيته ، وحَقِّيَّةِ ربوبيته ، وألوهيته ، فإنَّ ذلك كله مشهود وظاهر في جميع المظاهر.

قال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ ﴾ الآية.

والمعنى: أَوَلَم يتفكروا ـ يقال: نظر إليه إذا رآه، ونظر فيه إذا فكَّر فيه كما تقدم.

والمعنى: أَوَلَم يتفكروا في خلق السموات والأرض، وتلك العوالم الكبرى، فإنها تدلهم على سعة علمه سبحانه، وعظمة قدرته، وبديع حكمته، بل ينظروا في كل شيء ولو صغيراً، ولو كان جزءاً لا يتجزأ، حتى واحدة التراب، من حيث: كونها، ولونها، وحجمها، ومكانها، وما هنالك، فإن ذلك يدل على خالقها، وأنه العليم الحكيم، القدير على كل شيء سبحانه وتعالى.

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ ومعنى ﴿ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾: أي: دلالات قاطعة، وبراهين ساطعة على وجود الله تعالى، ووحدانيته، وكمال صفاته، وسعة علمه، وعظمة قدرته، فهي آيات بينات لأولي الألباب، أي: لأصحاب العقول الكاملة، الخالصة من شوائب الوهم، والحس، وظلمات الأهواء الفاسدة، والآراء الكاسدة، فإن لب الشيء هو خالصه من: الكدورات والشوائب.

فهؤلاء أولوا الألباب، لم يقفوا مع ظواهر الحسِّ، وشوائب الوهم، بل اخترقوا حجاب الوهم، وراحوا يتفكرون فيما وراء ذلك، كما قال سبحانه في وصفهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا

﴿وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يتبصَّرون بما فيهما من الآيات الكونية، والعجائب المرئية، وفي ذلك من بدائع الحِكم الدالة على عظمة الخالق، وقدرته، وسعة علمه، وحكمته، وأنه هو الله رب العالمين، وأنه الإلٰه الحق الذي تَجِبُ له العبادة وحده حقاً سبحانه وتعالى، ولذلك كانت نتيجة التفكر أنهم قالوا كما أخبر الله تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾ أي: ما خلقت هذا الخلق عَبثاً باطلاً لا لحكمة، بل ما خلقته إلا بالحق والحكمة ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزَّهتَ عن العبث والباطل ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾.

أي: بل لا بُدَّ من إثابة الصالح، وعقاب الفاجر، كما قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

ولذلك قالوا بعد التفكر في خلق السموات والأرض: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أي: فوفقنا اللهم لعمل الصالحات، وفعل الحسنات والخيرات، لنكون من الذين أحسنوا، وعملوا الصالحات، ولنكون من الذين قلت فيهم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ واحفظنا من عذاب النار.

وقال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ﴾ أي: فعلوا ﴿ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَـٰفِرُونَ ﴾.

فالتفكر فيما خلق الله تعالى يفتح للعاقل باباً عظيماً لمعرفة عظمة قدرة الله تعالى، وسعة علمه سبحانه، وحكمته، وعزة ربوبيته، وسيادة ألوهيته، وبذلك يَعلم أَنَّ علمه سبحانه لا يتناهى، وقدرته لا تتناهى، وأنه لا يُعجزه شيء سبحانه وتعالى، ولا يصعب عليه شيء، ولذلك أثنى الله تعالى على الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض، فيزدادون إيماناً بالله تعالى، ومعرفـةً بعظمته وكبريائه، وكمال أسمائه وصفاته.

فجميع مخلوقاته سبحانه هي آثار أسمائه وصفاته، فتنظر في خلق السماوات والأرض وما بينهما؛ وما هنالك، فتعلم يقيناً أنه هو العليم الحكيم القدير، وأنه الفعَّال لما يريد، وأن العالمَ كلهم له عبيد، وأنَّه المحيط بكل شيء علماً، والمحيط بكل شيء قدرة.

قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴾ فهو سبحانه المحيط بمخلوقاته علماً في الأزل الذي لا ابتداء له، والأبد الذي لا انتهاء له.

وأما هو جل وعلا فلا يحيطون به علماً، وكيف يتصور أن

يحيط المخلوق المحدود المُحاط بخالقه سبحانه المحيط ، الذي لا يتناهى في ذاته ، ولا في أسمائه ، ولا في صفاته جل وعلا .

جاء في الحديث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم على قوم ذات يوم وهم يتفكَّرون.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما لكم لا تتكلَّمون»؟

فقالوا: نتفكر في الله.

فقال: «تفكَّروا في الخلق ، ولا تفكَّروا في الخالق ، فإنكم لا تقدرون قدره»(١).

أي: لا تقدرون على أن تحيطوا به علماً ، ولا على معرفة حقيقة كُنْهِ ذاته ، فإنه سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فذاته سبحانه لا تشبه الذوات ، وصفاته لا تشبه الصفات.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تفكَّروا في آلاء الله ، ولا تفكَّروا في الله»(٢).

أي: تفكروا في نعمه التي أنعم بها عليكم ، الظاهرة والباطنة ، في أنفسكم من السمع والبصر ، والعقل ، وما وراء ذلك ، وفي نعمه المحيطة بكم.

«ولا تفكروا في الله» أي: لأن العقول عاجزة عن إدراك

---

(١) رواه أبو الشيخ في كتاب (العظمة) كما في (الجامع الصغير).

(٢) عزاه في (الجامع الصغير) إلى أبي الشيخ ، والطبراني في (الأوسط) وابن عدي ، والبيهقي.

ما هنالك ، لأن العقول مخلوقة ، ومحدودة ، ومتناهية ، ووجودها ممكن ليس بواجب ، بل الإنسان بذاته ووجوده وصفاته كلها وجميع العوالم كلها فقيرة إلى الله تعالى أن يمدها بالوجود في كل لحظة ، بل أقل من ذلك ، فإن الله تعالى هو الحق الواجب الوجود الذاتي ، الغني الحميد وحده.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ والمعنى: أنتم الفقراء إلى الله تعالى بذاتكم ووجودكم ، وصفاتكم ، والمحتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، والله تعالى هو وحده الغني الحميد ، هو الغني بالغنىٰ الذاتي المطلق ، والحميد في جميع ما يفعل ، وما يقول ، وفيما يقدِّر ويشرع ، ويقضي ويحكم ، وهو الحميد فيما يخفض ويرفع ، ويعطي ويمنع جلَّ وعلا.

جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يد الله ملأى لا يغيضها ـ أي: لا يُنقصها ـ نفقة ، سحّاء الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؛ فإنه لم يُغض ما في يده ، وكان عرشه على الماء ، وبيده الميزان يخفض ويرفع»[1].

وروى الإمام مسلم ، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس كلمات ـ أي: جُمل جامعة لمعاني كثيرة كبيرة ـ.

---

(١) رواه الشيخان ، والترمذي ، والإمام أحمد ، وابن ماجه كما في (الفتح الكبير).

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسطَ ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل[1]، حجابه النور، لو كشفه لأحرقتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» جل وعلا سبحانه وتعالى.

قول الله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾

الكلام على هذه الآية الكريمة له وجوه:

الوجه الأول: سُمِّي الإنسان بذلك لأنه يُؤنس ويُبصر من الأنس بخلاف الجن فإنهم أخفياء، كما قيل:

وما سمي الإنسان إلا لأنسه وما القلب إلا أنه يتقلب

وقيل: هو مأخوذ من النسيان، كما قيل:

وما سُمي الإنسان إلا لنسيه وأول ناسٍ في الورى أوّل النَّاسِ

والقول الأول: أصوب، فهناك عالم الإنس، وهناك عالم الجن؛ فإنهم أخفياء لا يُرون.

والعلق: جمع علقة، وهي دم جامد متعلق بالرحم، وأتى بصيغة الجمع ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ لأنه أريد بالإنسان الجنس.

---

(١) هذا نوع من أنواع رفع أعمال العباد إلى الله تعالى، وقد فصلت الكلام على رفع الأعمال وأنواع الرفع، وبَعض الحِكم لهذا الرفع في كتاب (صعود الأقوال ورفع الأعمال) فارجع إليه.

وذكر سبحانه هنا مبدأ خلق الإنسان من علق ، لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة ، كما جاء في (الصحيحين)، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة[1] مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يُرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد» الحديث.

وقد بين الله تعالى مبدأ خلق الإنسان ، وأطوار خلقه كلها التي يَمرُّ عليها في الرحم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ أراد آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ ﴾ هذا الضمير يعود على جنس الإنسان ، وهم ذرية آدم عليه السلام ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ أي: رحم أمه ، الذي أعدَّه الله تعالى لذلك وهيأه ، للتمكن فيه ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً[2] فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾.

الوجه الثاني: من الكلام حول قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾.

خصَّ الله تعالى الإنسان بالذكر هنا من بين عموم المخلوقات المشار إليها بقوله تعالى: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ أي: خلق جميع المخلوقات ، ثم ذكر سبحانه الإنسان خاصة لما أودعه الله تعالى

---

(١) قطعة دم جامد ، متعلقة في الرحم ، تعلقاً قوياً.

(٢) هي: قطعة كالبضعة من اللحم ، وقال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى: هي لحمة قليلة قدر ما يُمضغ. ا هـ.

فيه مِن عجائب قدرته وآياته سبحانه ، الدالة على عظمة قدرته سبحانه ، وسعة علمه وحكمته ، وعلى كمال رحمته ، وأنه هو الله ربُّ العالمين ، وأنه هو إلّه الأولين والآخرين ، وأنه سبحانه لا رب سواه ، ولا إلّه إلاَّ هو وحده لا شريك له.

وقد شرَّف الله تعالى هذا الإنسان وكرَّمه ، وخصَّه بخصائص من بين سائر المخلوقات ، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .

فهو سبحانه كرَّم بني آدم بأنواع من التكريم والتشريف ، فكرَّمه بالعقل والعلم ، والبيان ، وحسن النطق ، وحسن الشكل ، والصورة الحسنة ، والهيئة الجميلة الكريمة ، والقدِّ المعتدل ، واكتساب المعارف والعلوم ، والاستدلال على الأمور ، وإقامة الحجج والبراهين ، والتفكر في المخلوقات ، واستنتاج القضايا والعبر، واكتساب الأخلاق الشريفة الفاضلة، وعمل البرّ ، والسعي في الخير ، والجدِّ في الطاعة ، والانقياد لأوامر الله تعالى؛ التي جاءت بها رسل الله تعالى صلوات الله تعالى على رسولنا سيدنا محمد صلى الله عليه وعليهم وآلهم أجمعين ، وعلينا أجمعين ـ آمين.

فسبحان الله والحمد لله ، الذي خلق هذا الإنسان ، ونقله من حال إلى حال ، بعد أن كان علقة متعلقة في الرحم ، وطوَّره وصوَّره ، وكمَّله ، وجمَّله ، ورقَّاه حتى صار إنساناً ذا منطق؛ وبيان ، وحجة ، وبرهان ، وأفاض عليه أنواعاً من التكريم ، والتفضيل ، كما تقدم في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾

الآية الكريمة ، والبحث في هذه الآية واسع جداً ، ولعل الله تعالى ييسر لي عودة إلى ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الوجه الثالث : حول قوله تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ .

في هذه الآية الكريمة إقامة الحجة على الإنسان من نفسه ، وهي تُلزمه بالإقرار والإيمان بخالقه ، الذي خلقه ألا وهو الله ربُّ العالمين ، والإله الحق المبين ، واحد لا شريك له ، فإنه سبحان طوَّر هذا الإنسان أطواراً ، وخلقه خلقاً من بعد خلق ، كما قال سبحانه مخبراً عما قال نوح عليه السلام لقومه : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ .

قال جمهور السلف في معنى ذلك : خلقكم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم ثم . . . حتى صار أحدهم إنساناً[1] ذا منطق وبيان ، فبغدما ذكر لهم الدليل النفسي ، ذكر لهم الأدلة الآفاقية .

فقال : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ الآيات الكريمة .

وهذا كما قال تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ .

---

(١) **وقال بعض العلماء :** المراد بالأطوار : الأحوال المختلفة بعد الولادة إلى الموت ، من الصبا والشباب ، والكهولة ، والشيخوخة ، والقوة والضعف .
وقال بعضهم : هي الألوان والهيئات ، والأخلاق ، والمِلل المختلفة .
وقيل : هي الصحة ، والسقم ، وكمال الأعضاء ونقصانها ، والغنى والفقر ونحوهما .

أي: أين تُصرف عقولكم وأفكاركم، فتعبدون أصناماً وأحجاراً، وهي مصنوعة بأيديكم ، فالإلّه الحق الذي تحقُّ له العبادة وحده ، هذا هو الله الذي خلقكم في بطون أمهاتكم ، خلقاً من بعد خلق ، في ظلمات ثلاث ، وهي: ظلمة المشيمة التي هي كالغِلاف والوقاية للولد ، وظلمة الرحم الذي فيه المشيمة المحيطة بالولد ، وظلمة بطن الأم الحامل بذلك، فتبارك الله رب العالمين ما أوسع علمه الذي لا يتناهى، وما أعظم قدرته، فإنه على كل شيء قدير، لا يُعجزه شيء ، ولا يصعب عليه شيء ، وما أجلَّ حكمته سبحانه وتعالى.

فعلى العاقل أنْ يفكِّر في خلق نفسه ، يَرى في ذلك من الآيات الساطعة ، والأدلة القاطعة التي تُلزمه وتحمله على الإيمان بوجود الله تعالى رب العالمين ، إلّه الأولين والآخرين.

فأنت أيها الإنسان من أكبر الأدلة على وجود الله تعالى ، قال الله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴾ .

قول الله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾

في هذه الآية الكريمة يبين الله تعالى كرمه العظيم ، وفضله الكبير على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول له: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ فجيء بصيغة الأكرم الدالة على عظمة كرمه تعالى ، وأفضلية جوده وإنعامه على جميع عباده عامَّةً ، وعلى حبيبه الأكرم ورسوله المعظم صلى الله عليه وآله وسلم خاصَّة ، فيخاطبه بقوله سبحانه: ﴿ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ .

والمعنى: أنَّ ربك الأكرم تبارك وتعالى قد خصَّك يا رسول الله بخصائص من أعظم الإكرام لك ، وأفضل الإنعام عليك ، على وجه لم يَنلها غيرك ، فجعلك نبياً ، وخاتم النبيين ، ورسولاً عامّاً إلى جميع العالمين ، ولا نبي ولا رسول بعدك.

كما خصك ربك الأكرم بهذا القرآن العظيم المعجز للخلائق أجمعين ، المحفوظ بكفالة رب العالمين الذي قال: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ ، فلا يمكن أن يجري عليه تبديل ولا تغيير ، ولا زيادة ولا نقص؛ مهما امتدت العصور.

كما أكرمك ربك الأكرم بقراءته ، فعلَّمك قراءته ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ أي: قراءته كما أُنزل ، فعلَّمه الله تعالى قراءته في حين أنه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أميّاً ، لم يتعلم الكتابة ولا القراءة ، كما قال الله تعالى معلنا ذلك الإكرام الإلٓهي ، الذي خصَّه الله تعالى به فقال جل وعلا: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

والمعنى: أنك يا رسول الله ما كنت من قبل أن ننزل عليك هذا القرآن ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ أي: ما كنت تقدر أن تتلو أيَّ كتاب ، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ﴾ أي: ولا تَقْدر أن تخطه فتكتبه ﴿ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الكافرون بك ، أَيْ: لو كنت تقدر على التلاوة أو الكتابة مِن قَبل نزول القرآن عليك؛ لقال الكافرون: إنك قرأت وتلوتَ الكتب السابقة؛ ثم كتَبتها وجئتهم بها.

وهذا كما قال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

والمعنى: قد لبثت فيكم مِنْ قبل أن ينزل عليَّ هذا القرآن الكريم لبثت فيكم زمناً طويلاً: أربعين سنة، تعرفونني بالصدق والأمانة، وأني لا أقرأ ولا أكتب، ثم جئتكم بهذا القرآن الكريم المعجز للأولين والآخرين، والخلائق أجمعين ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أَنَّ هذا لا يكون إلا من عند الله تعالى رب العالمين، وأنَّ هذا القرآن هو كلام الله تعالى، وأني رسول الله تعالى، أنزله الله عليَّ، وأقرأنيه، وأمرني أن أبلغه، وأن أتلوه وأبينه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في جاهلية جهلاء، وضلالة عمياء، فأخرجهم من الجهالة العمياء، والضلالة الظلماء، إلى نور الحق، والهدى، والضياء.

فكونه صلى الله عليه وآله وسلم نشأ أمياً، ثم إنه على تمام الأربعين سنة: جاء بهذا القرآن المعجز، ينزل عليه آياتٍ بعد آيات ـ هذا من أكبر الأدلة على صدق نبوته، وأنه رسول الله تعالى حقاً.

ولذلك وصفه الله تعالى صلى الله عليه وآله وسلم في جميع الكتب السماوية بأنه النبي الأمي، وأن الله تعالى هو يُنزل عليه كتاباً جامعاً، وقرآناً عظيماً، معجزاً للأولين والآخرين، فيه بيان كل شيء، وتفصيل لكل شيء.

ووصفه صلى الله عليه وآله وسلم بأنه النبي الأمي، فهذا الوصف فيه إكبار له صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيم، وبيان رفعة

شأنه ومنزلته على غيره ، وأنه سبحانه هو الذي يتولى إقراءه لهذا القرآن ، وبيانه له ، على أكمل الوجوه في القراءة والبيان ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: في صدرك وقلبك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن نقرئك إياه ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: أن نبينه لك ، ثم أنت يا رسول الله تُبين للناس ما نزل إليهم.

فلو لم يكن صلى الله عليه وآله وسلم حين أنزل الله تعالى عليه القرآن أمياً ـ بأن كان عالماً بالقراءة والكتابة ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الذين كفروا به من المشركين ، ومن أهل الكتاب أيضاً ، باعتبار أنه موصوف ومكتوب عندهم في التوراة والإنجيل، أنه النبي الأمي ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

ولذلك كان صلى الله عليه وآله وسلم يحتج على أهل الكتاب بما هو موصوف ومبشر به في كتبهم ، فلو لم يكن مذكوراً ومكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل لقالوا: هذه التوراة والإنجيل لا نجد صفتك ، وأنك نبي الله تعالى ، بل كانوا يُقرُّون ولكن يخفون ذلك ويكتمون ، وكيف يُقدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الاحتجاج عليهم بما هو مكتوب عندهم وهو غير واثق من ذلك كل الثقة ، وموقن بذلك كمال اليقين ، هذا من المستحيل عقلاً ، فإنَّ

أيَّ عاقل لا يَقدم على الاحتجاج بما هو مكتوب عند خصمه، لا يقدم على ذلك إلا وهو على يقين من ذلك.

ألا ترى أنه قد يَختلف اثنان في قضية مالية، فصاحب الحق يقول للآخر: أنا أرضى بما هو مكتوب في دفتر حسابك، فما أقدم على ذلك إلا وهو واثق أن الذي في دفتر الطرف الآخر هو كما يقول ويدعيه الطرف الأول.

هذا وإنَّ خبر القرآن الكريم عن أوصافِهِ صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة والإنجيل، فإن خبر القرآن عن ذلك هو أقوىٰ من رؤية العيان، وأقطع في الإثبات من كل دليل وبرهان.

وقد وصف الله تعالى حبيبه الأكرم، ورسوله المعظم صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السابقة ـ كما تقدم ـ بالأوصاف الدالة على أعلى مراتب الكمال التي خصه الله تعالى بها، ووصف أصحابه الذين معه رضي الله عنهم، ومدحهم وأثنى عليهم في الكتب كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ﴾ أي: صفتهم ﴿فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ﴾ أي: صفتهم ﴿فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾.

روى الإمام البخاري، عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة.

فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن.

«يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرزاً للأميين، أنتَ عَبْدي ورسولي، سَمَّيتك المتوكل، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا صخَّاب[1] في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة؛ ولكن يعفو ويغفر.

ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملَّة العوجاء، بأن يقولوا: لا إلّه إلا الله[2].

ويفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صُمّاً، وقلوباً غُلفاً»[3].

وروى الترمذي، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: مكتوب في التوراة صفة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وعيسى ابن مريم يُدفن معه.

قال أبو مَوْدود المدني: قد بقي في البيت ـ أي: الحجرة الشريفة ـ موضع قبر.

---

(١) بالصاد وبالسين: وهو الذي يرفع صوته على الناس متعالياً عليهم، بل هو صلى الله عليه وآله وسلم ليِّن الجانب، رفيق بعباد الله تعالى.

(٢) أي: ومحمد رسول الله، فالمراد يأتون بكلمة التوحيد والإيمان، فإن الكلمتين صارتا كالكلمة الواحدة؛ لتلازمهما، أوْ هذا من باب الاكتفاء نحو: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ أي: والبرد. اهـ. كما في (شرح المواهب).

(٣) أي: قلوباً مغلقة، فيفتحها بنور الإيمان، الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى أبو داود ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: سمعت النجاشي صاحب الحبشة ـ أي: ملك الحبشة ـ رحمه الله تعالى يقول: (أشهد أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنَّه الذي بَشَّر به عيسى عليه السلام ، ولولا ما أنا فيه من المُلك ، وما تحمَّلتُ من أمور الناس ـ أي: تدبير أمور الرعية ـ لأتيته صلى الله عليه وآله وسلم حتى أحمل نعليه) أي: يكون خادم نعلي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنور عظيم من عند الله تعالى ، نَوَّرَ به القلوب المظلمةَ ، والعقول الضالة القاتمة ، والأعين العمياء فبصَّرها ، والأذان الصماء فأسمعها ، كما تقدم في صفته صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة.

وقد قال سبحانه: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾.

فيخرجهم من الظلمات إلى النور الباهر ، وقوة الضياء ، فيمشون على المحجة البيضاء ، ليس فيها التباس ولا التواء.

قال الله تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ ﴾ أي: عظَّموه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾.

اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك صلى الله عليه وآله وسلم ـ اللهم آمين.

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

اللهم اجعلنا منهم بجاهه عندك صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الإمام أحمد في (مسنده) عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موعظة ذرفتْ منها العيون، ووجِلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله إن هذه لموعظة مودِّع فماذا تعهد إلينا ـ أي: تُوصينا به؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قد تركتكم على البيضاء ـ أي: على الشريعة البيضاء الغرَّاء ليس فيها التباس ولا ارتياب ـ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، وَمَنْ يَعِشْ منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم مِنْ سنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين».

ورواه ابن أبي عاصم في كتاب (السنة) بإسناد حسن، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أنَّه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لقد تركتكم على مِثْل البيضاء؛ ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك».

فما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمته في حيرة، ولا في شك، ولا في ارتياب، ولا في عماوة ولا جهالة، ولا في ظلمة، بل تركهم على ملة غراء، وشريعة سمحاء بيضاء، ليس

فيها ليل مظلم ، بل ليلها كنهارها سواء ، على بصيرة وهدى ، ونور ، لا يزيغ ويميل عنها إلا هالك قد اتبع هواه.

قــول الله تــعــالــى : ﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾

والمعنى: أنه سبحانه ربك الأكرم ، الذي علَّم مَنْ شاء من عباده ما علَّمه بواسطة القلم ، هو عَلَّم ذلك لا غيره ، فكما أنه سبحانه علَّم القارىء بواسطة الكتابة بالقلم ، هو سبحانه ربُّك الأكرم يُعلمك يا رسول الله بدون القلم ، فإنه ربك الأكرم ، الذي خصَّك بأنواع من الإكرام، والعطاء ، والعلوم ، فهو سبحانه يُقرئك وإن لم تك من قبل قارئاً ، بل نشأت أمياً ، وهو سبحانه يُعلمك مَا لَمْ تكن تعلم من علُوم وعُلوم ، لا يحصيها إلا الذي أكرمك وعلَّمك ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

فخصه الله تعالى الأكرم ، فعلمه ما لم يكن يعلم ، فضلاً من الله تعالى خاصاً ، ولذلك قال: ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

قــول الله تــعــالــى : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

وفي هذا دليل على كمال قدرته تعالى ، وعلى عظيم كرمه عز وجل ، وفضله على عباده ، وفي هذا دلالة وإعلان بأنه سبحانه وتعالى قد تكفل أن يُعلم رسوله الأكرم ، ونبيه المعظم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ، من العلوم والمعارف ما يعجز عنه العدُّ والإحصاء ، ولا يحيط به الاستقصاء ، تكريماً له صلى الله

عليه وآله وسلم ، وتفضيلاً له على من سواه ، كما قال سبحانه: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

ولا يزال يُـرَقِّيه الله تعالى في مراقي العلوم والمعارف الإلَهية ، التي لا يتحملها غيره صلى الله عليه وآله وسلم ، ويزيده علوماً وعلوماً ، إلى ما لا يتناهى ، كما قال الله تعالى: ﴿ ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فهو صلى الله عليه وآله وسلم لا يزال يترقى في علوم لا إلّه إلا الله ، لأن الله تعالى يقول له دائماً: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فإن العلم بلا إلّه إلا الله ، وما تضمَّنته ، وما دلت عليه من كمالات الله تعالى ، وأسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ، ذلك علم لا نهاية له.

وقال الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ فهو صلى الله عليه وآله وسلم لا يزال يطلب أن يزيده الله تعالى علماً إلى ما لا نهاية.

جاء في الحديث ، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إلّه إلا أنت سبحانك ، اللهم إني أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك ، اللهم زِدْني علماً ، ولا تُزغ قلبي بعد إذ هديتَني ، وهبْ لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» رواه أبو داود والنسائي.

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأعلن أنَّه أعلم خلق الله تعالى بالله تعالى ، وأنه أشدهم له خشية.

روى الشيخان ، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: صنع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً تَرخَّص فيه ،

فتنزَّه عنه قوم ، فبلغه ذلك ، فخطب فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه ، فوالله إني لأعلمهم بالله ، وأشدهم له خَشية».

ولا يزال صلى الله عليه وآله وسلم يزيده الله علماً ، ويفتح الله تعالى عليه مِنْ محامده سبحانه ، وحسن الثناء عليه؛ ما لم يفتحه على أحد غيره ، وذلك على وجه لا ينتهي ولا ينقطع أبداً ، ومما يدلك على ذلك ، ما جاء في أحاديث الشفاعة.

جاء في حديث الشفاعة الذي رواه الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فيأتونني ـ أي: الناس يوم القيامة ـ فيقولون: يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخَّر ، اشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه» أي: من الشدائد وأهوال الموقف ، وشدائده ، وكرباته ، وحرِّه الشديد.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأنطلق فآتي تحت العرش ، فأقع ساجداً لربي ، ثم يفتح الله عليَّ من محامده ، وحُسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي.

ثم يُقال: يا محمد ارفع رأسك ، سَلْ تعطه ، واشفع تشفَّع.

فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا ربِّ ، أُمتي يا ربِّ ، أمتي يا ربِّ.

فيقال: يا محمد أدخل من أمتك مَنْ لا حساب عليهم مِنَ الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» الحديث.

وجاء في رواية للشيخين ، عن أنس رضي الله عنه ـ في حديث الشفاعة ـ وفيه قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فَأُوْتىٰ ـ أي: تأتيه الناس يوم القيامة يسألونه الشفاعة ـ فأقول: أنها لها».

أي: هو صاحب الشفاعة العامَّة لا غيره.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم أنطلق فأستأذن على ربي فيؤذن لي ، فأقوم بين يديـه ، فأحمده بمحامد لا أقدر عليها الآن ، يُلهمنيها» أي: يلهمه الله تعالى إيَّاها ، ويعلمه في ذلك الموقف.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم أخِرُّ لربنا ساجداً.

فيقول: يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع لك ، وسل تعطه ، واشفع تشفَّع» الحديث.

وجاء في رواية للشيخين ، عن أنس رضي الله عنه أيضاً ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «فيأتونني ، فأستأذنُ على ربي فيؤذن لي ، فإذا رأيته وقعتُ ساجداً له ، فيدعني ما شاء الله ـ أي: مدة طويلة وهو صلى الله عليه وآله وسلم ساجد ـ فيقال: يا محمد ارفع رأسك ، قل: يُسمع لك ، سل تعطه ، اشفع تشفَّع.

فأرفع رأسي فأحمد ربي بتحميد يُعلِّمنيه ربي»[1] أي: هو لا يعلمه

---

(١) انظر تلك الروايات في (جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم) وفي (تيسير الوصول) وقد ذكرت تلك الأحاديث بتمامها في بحث الشفاعة المفصل في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع إليه.

الآن صلى الله عليه وآله وسلم، وإنمَّا يُعَلِّمُه الله تعالى ذلك التحميد في ذلك المقام ، صلى الله عليه وآله وسلم وعلينا معهم آمين.

قـولـه تـعـالـى:

﴿ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

في هذه الآية الكريمة يذكر سبحانه من فضله الكبير ، وكرمه العظيم على عباده التعليم بالقلم ، الذي تُحفظ به العلوم ، وتَثبت به الحقوق ، وتُعلم به الوصايا ، وتُحفظ به الشهادات ، ويُضبط به حساب المعاملات بين العباد ، وبه تقيَّد أخبار الماضين للباقين بعدهم واللاحقين ، فجعل الله تعالى لهم الكتابة وعاءً حافظاً للعلوم من الضياع ، والشكوك والنسيان ، كالأوعية التي تُحفظ فيها الأمتعة من الضياع والفساد.

وهكذا نعمته العظيمة جل وعلا على عباده بالتعليم بالقلم ، لها الفوائد الكبرى ، والمنافع العظمى ، فدلَّ ذلك على عظيم فضله سبحانه ، وكمال كرمه على عباده.

قـول الله تـعـالـى:

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾

الكلام على هذه الآيات الكريمة له وجوه:

الأول: أما الآيات الخمسة المتقدمة فهي أول ما نزل من القرآن الكريم، على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأما هذه الآية الكريمة وما يليها فإنها نزلت بعد زمان من نزول الآيات

السابقة الخمسة ، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يضع هذه الآيات المتأخرة بالنزول بعد تلك الآيات السابقة ، فإنَّ ترتيب الآيات وتأليف آيات السُّور بعضها إلى بعض ذلك بأمر من الله تعالى ، موجَّهٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما ثبت في الأحاديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم، ومِنْ ذلك: ما رواه الترمذي وأبو داود ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السُّور ذوات العَدَد ، وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا نزل عليه شيء ـ أي: من القرآن الكريم ـ دعا بعض من كان يكتب ـ أي: من الصحابة الذين عَيَّنهم وخصَّهم بكتابة الوحي ـ فيقول: «ضَعُوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا» فإذا نزلت عليه الآية فيقول: «ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا»(١) أي: يُعيِّن لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم موضع كتابة الآيات، ويرتبها لهم في مواضعها من السُّور حسب التعليمات الإلٰهية ، التي يوحيها الله تعالى إليه صلى الله عليه وآله وسلم.

الوجه الثاني: حول قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾.

كلاَّ هنا معناها حقاً؛ كما جرى عليه العلامة القرطبي في تفسيره ، وغيره من المفسرين(٢).

---

(١) إلى تمام الحديث كما في (تيسير الوصول).

(٢) وقال كثير من المفسرين: هي: للردع والزجر.

قال في (مختار الصحاح): كلا هي كلمة زجر وردع ، معناها: اِنْتَـهِ لا تفعل ، كقوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ﴾ أي: الكفار ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ۝٣٨ كَلَّآ﴾ أي: لا يطمع في ذلك ، قال: وقد يكون بمعنى حقاً إلخ.

فهي ـ أي: كلمة كلَّا ـ للردع والزجر إذا تقدمها ما يُزجر ويُردع عنه ، أَوْ ذُكر مَنْ يُردع ، وإذا لم يكن شيء مِنْ ذلك فهي بمعنى حقًّا ، كما هنا في الآية ، والمعنى: إنَّ الإنسان إذا رأى نفسه استغنى بماله ، أو رجاله ، أو عشيرته ، أو نحو ذلك؛ فإنه يَطغى ، ويتكبر ، فيجاوز حدود الشريعة ، وَيَغلب عليه اتباع هوى نفسه ، ويحمله بَطَره وأشَره وفرحه بماله ، يحمله: على الترفُّع والتكبر على غيره ، واحتقار الناس ، ومخالفة أوامر الله تعالى ، وارتكاب ما نهى عنه سبحانه وتعالى ، هذا كله إذا رأى نفسه قد استغنى ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ﴾ أي: من أجل أن رأى نفسه ﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾.

بل الواجب على العاقل إذا أعطاه الله تعالى مالاً أو جاهاً أنْ يعترف بفضل الله تعالى عليه ، ويلازم ما أمره الله تعالى به ، وأن يَشكر الله تعالى على تلك النعمة التي أنعم الله تعالى عليه بها ، وأن لا يرى نفسه قد استغنى ، بل يُراقب أنَّه فقير إلى الله تعالى في كل شيء ، في: وجوده ، وحياته ، وسمعه ، وبصره ، وقوته ، وماله ، وغير ذلك.

قال الله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أي: هو وحده لا غيره ، فكيف يصح للعاقل أن يرى

نفسه استغنىٰ ، فيتكبر ويعرض عما أمر الله تعالى ، ويترفع على غيره ، ويجاوز حدود الشريعة؛ فيطغى ، كيف يصح ذلك في حين أنَّه كله فقير إلى الله تعالى الغني الحميد.

الوجه الثالث: حول ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ .

إنَّ ذكر هذه الآيات بعد الآيات المتقدمة فيه بيان وتأكيد صدق نبوة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأنه حقاً رسول الله لا ريب في ذلك قطعاً عند كل عاقل ، وبيان ذلك: أنَّ كل عاقل لو راح يفكّر ويتبصَّر فيما جاء به هذا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من القرآن المعجز ، والمعجزات الخارقة للعادات؛ يعلم يقيناً أنُه نبي الله تعالى المكرَّم ، ورسوله المعظم صلى الله عليه وآله وسلم .

أمّا القرآن المعجز: فقد جاء بهذا القرآن المعجز من وجوه متعددة لا تحصى ، في حين أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم أميٌّ لم يتعلَّم القراءة ولا الكتابة ، فجاء بهذا القرآن المعجز يتلوه على الناس ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكيهم ، قال الله تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ وجاء يتحدى العالم كلّه: الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، ولو بسورة واحدة مثله ، ويسجِّل عليهم عجزهم عن ذلك ، ويعلن عجزهم كما قال الله تعالى آمراً لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم أن يقولَ معلناً: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ أي: متعاونين وباذلين جهودهم في ذلك .

وقد تكفل سبحانه وتعالى لهذا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أن يحفظ له هذا القرآن الذي أنزله عليه ، يحفظه من التبديل والتغيير ، والزيادة والنقص إلى الأبد ، مهما تقادمت العصور ، وتتابعت الأجيال ، وامتدت الأيام والدهور.

إذاً جَميع ذلك يَستدل به العاقل على أَنَّ هذا القرآن هو كلام رب العالمين ، أنزله على إمام الأنبياء والمرسلين ، وخاتمهم ، يُؤْمن بذلك كل عاقل منصف ، أمَّا مَنْ رأى نفسه استغنىٰ بماله ، أو جاهه أو عشيرته ، فطغى وتكبَّرَ؛ فإنه يُنكر الحق ولو علم أنّه حق ويجحده وهو يَعلم أنه حق ، فلا يعترف بالحق ولو علم أنّه حق كما قال سبحانه وتعالى فيهم: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾ أي: وهو قولهم: شاعر وساحر ، إلى غير ذلك ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ .

والمعنى: إنَّهم يعاندون ويعارضون ، ويجحدون ، وهم يعلمون أنك رسول الله الصادق الأمين ، وأنك لست بشاعر ولا ساحر ، ولكنَّ كبرهم وعصبيَّتهم الجاهلية ، حملتهم على أن يَجحدوا ويُكذبوا ، وَمِنَ المعلوم أَنَّ الجُحود هو إنكار الحق مع العلم بأنه الحق ، فهم يعرفون ولكن لا يعترفون ، كما قال سبحانه وتعالى في فرعون وقومه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا﴾ أي: بالآيات التي جاءهم بها موسى عليه السلام ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ أي: والحال أنهم على يقين أنها آيات الله تعالى ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ .

روى ابن إسحق عن الزهري[1] في قصة أبي جهل حين جاء يسمع قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الليل ، هو وأبو سفيان والأخنس بن شريق ، ولا يَشْعر أَحد منهم بالآخر ـ أي: جاء كل منهم مختفياً وحده بحيث لا يُشعر غيره ـ فاستمعوا قراءته صلى الله عليه وآله وسلم إلى الصباح ، فلما هجم الصبح ـ أي: أضاء ـ تفرقوا ـ ذاهبين إلى منازلهم ـ فجمعتهم الطريق ، فقال كلٌّ منهم للآخر: ما جاء بك ، فذكر له ما جاء به ، ثم تعاهدوا أن لا يعودوا.

فلما كانت الليلة الثانية جاء كل منهم ، ظناً أن صاحبيه لا يجيئان ، لما سبق من العهود على أن لا يعودوا ، فلما أصبحوا جمعتهم الطريق ، فتلاوموا وتعاهدوا على أن لا يعودوا.

فلما كانت الليلة الثالثة جاؤوا أيضاً ، فلما أصبحوا تعاهدوا على أن لا يعودوا لمثلها أبداً ، ثم تفرقوا.

فلما أصبح الأخنس بن شريق ، أخذ عصاه ثم خرج حتى أتىٰ أبا سفيان بن حرب في بيته ، فقال له: أخبرني عن رأيك فيما سمعت من محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ!

فقال أبو سفيان: والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها.

فقال الأخنس: وأنا والذي حلفت به ـ أي: مثلك ـ.

ثم خرج الأخنس مِن عند أبي سفيان فأتىٰ أبا جهل ، فدخل

---

(١) كما في تفسير الحافظ ابن كثير ، و(الدر المنثور) وغيرهما.

عليه في بيته ، فقال له : يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ؟

فقال أبو جهل : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف[1] الشَرَف ، فأطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا ـ أي : للمحتاجين ـ فأعطينا ، حتى إذا تجاثينا على الرُّكب ، وكنا كفَرَسَيْ رِهان ـ أي : سواء في المفاخر ـ قالوا : مِنَّا نَبيٌّ يأتيه الوحي من السماء ـ أي : افتخروا علينا بأنَّ فيهم نبياً يُوحى إليه من السماء ، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إمام المرسلين صلوات الله تعالى عليه وعليهم أجمعين ـ.

قال أبو جهل : فمتى ندرك هذه الفضيلة والمفخرة ، ومِنْ أين نأتي بنبي؟

قال أبو جهل : والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه .

فقام عنه الأخنس وتركه . ا هـ.

فلقد علم أبو جهل وأمثاله أَنَّ سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقاً ، ولكن العصبية الجاهلية ، وأنانية كبرياء النفس؛ حالت دونه فلم يُقرَّ ، ولم يعترف بل جحد وأنكر .

وجاء في رواية لابن جرير : فقال أبو جهل : والله إنَّ محمداً لصادق ، وما كَذَب محمدٌ قط ، ولكن ذهبت بنو هاشم باللواء ، والسقاية ، والحجابة ، والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش . ا هـ.

---

(١) وفي رواية لغير ابن إسحق : تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرف إلخ .

وأما **المعجزات** وهي: خوارق العادات التي أيَّدَ الله تعالى بها رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فهي كثيرة لا تحصىٰ ، ولا تستقصى ، وهي أنواع متنوعة ، أقامها الله تعالى حُجَّة على جميع العالمين ، وسائر الأمم إلى يوم الدين.

فمنها المعجزات السماوية ، ومنها المعجزات الأرضية ، ومنها المعجزات النباتية والشجرية ، ومنها المائية ، ومنها الطعامية والشرابية ، ومنها المتعلقة بالحيوان ، ومنها المتعلقة بالطيور ، ومنها المتعلقة بالجمادات ، ومنها الإخبارات الغيبية ، وهي على أنواع: فمنها الإخبارات عن الأمور الماضية ، ومنها الإخبارات عن أمور حالية ، ومنها عن الأمور الآتية ، والحوادث الزمنية ، وهناك معجزات ومعجزات لا يمكن استقصاؤها...

وإنَّ كل واحدة إذا فَكَّر فيها العاقل يَعلم يقيناً أنَّ الذي جاء بها هو رسول الله تعالى حقاً ، لا يُنكر ذلك إلا مَن رأى نفسه قد استغنى بمال أو جاه ، أو عشيرة ، أو بدعواه قد بلغ من الذكاء والفهم مبلغاً فغرته نفسه ، وزينت له أنه قد استغنى بذلك ، فيتكبر ويترفع عن قبول الحق ـ وهو يعلم أنه الحق ـ ويتبع هوى نفسه ، وما تزينه له ، ويعرض عن الحق القاطع ، والبرهان الساطع الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ ﴾ أي: بعد أن ظهر لهم الحق الذي جئت به ، والبينات القطعية التي جئتهم بها ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

فهم قوم ظالمون لأنفسهم ، عرفوا الحق فلم يعترفوا به ، ورأوا

النور الساطع فأعرضوا عنه ، وجحدوا ، فهم كفار ، رأوا نور الهدى واتضح لهم فأنكروا ذلك ، وأخفوه ، وأعرضوا عنه ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم ﴾ أي : ظهر لهم ﴿ مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ﴾ أي : حين كانوا في الدنيا ﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ .

وهكذا عادة الكفار المعاندين والجاحدين ، أنهم يلجؤون إلى الله تعالى حالة الشدائد والاضطرار ، ويعطون العهد على أن لا يعودوا ، حتى إذا انجلت عنهم تلك المهالك والشدائد : عادوا لِمَا كانوا ، قال الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ ﴾ أي : الشدة الشديدة ، والمهلكة الكبرى ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ ﴾ أي : إلى البر ﴿ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ الآية الكريمة .

وهذا كما قال الله تعالى في الكفار : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ .

أي : يعرف نعمته عليه ، وقدرته ، ولكنه يجحد وينكر ، وهو يعلم أنما ينكره ويجحده هو حق ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ .

ومن أجل ذلك قال سبحانه : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ .

أي : المنكر للحق بعدما تبين له أنه الحق ، فهذا شأن المتكبر

العنيد ، ومن المعلوم أن العنيد هو كالحديد لا تُلينه إلا النار.

قال الله تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ الآيات الكريمة.

الوجه الرابع: حول قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ .

فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بهذا القرآن المعجز ، الذي أنزله الله تعالى عليه ، وأقرأه إيَّاه ، وبيَّنه له ، وأمره أَنْ يُبينه للناس ، وَأن يتلوه عليهم كما أقرأه الله تعالى إيَّاه ، وأيَّده الله تعالى بالمعجزات التي لا تُحصىٰ ، وأرسله الله تعالى إلى جميع العالمين ، ليقيم الحجة على جميع العالمين.

ولذلك وصفه الله تعالى بأنه البيِّنة ، أي: بينة الله تعالى ، وحجته على جميع العالمين ، كما وصفه سبحانه وتعالى بأنَّه صلى الله عليه وآله وسلم بُرهان مِنْ رب العالمين.

أما البينة فقد قال الله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ أي: عبَّاد الأوثان ، والنيران ، من العرب والعجم ﴿ مُنفَكِّينَ﴾ أي: تاركين ومفارقين ما هم عليه قبل البعثة ﴿ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ مِنْ عند الله تعالى ، تُبين لهم الحق بياناً جلياً ، ظاهراً لا ريب فيه ولا شك ، ثم فسَّر سبحانه وتعالى تلك البينة ما هي فقال: ﴿ رَسُولٌ[1] مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ .

فالبينة هي: سيدنا محمد رسول الله تعالى ، فإنه بينة الله تعالى

---

(١) وموضعه من الإعراب النحوي: بدل مطابق ، وهو المعروف بـ: بدل كل من كل ، أي: بدل من البينة.

الكبرى ، وحجة الله تعالى العظمىٰ على العالمين أجمعين ، إنسهم وجنهم ، وعربهم وعجمهم ، فلا نبي ولا رسول بعده أبداً ، فجاء صلى الله عليه وآله وسلم يتلو هذا القرآن العظيم ، المكتوب في صحف مطهرة في الملأ الأعلى ، كما قال تعالى : ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ .

وقد اشتمل هذا القرآن العظيم على سور متعددة ، كلُّ واحدة منها كتاب قيِّم ، فيه بيان الحق جلياً واضحاً ، ليس فيها التباس ولا تعارض.

وقد بين الله تعالى أنَّ هذا القرآن العظيم هو مكتوب في أم الكتاب عنده سبحانه ، قال الله تعالى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ ﴾ أي: صيرناه ﴿ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ فالجعل هنا في قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ ﴾ ليس بالجعل التكويني ، فإن القرآن العظيم كلام الله تعالى ، وليس بمخلوق.

وفي هذه الآيات الكريمة يُبين الله تعالى لعباده شرف هذا القرآن الكريم في الملأ الأعلى ، ورفعة قدره؛ ليعظِّمه ويجلَّه ويتبع ما فيه أهل الأرض ، ولذلك قال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا ﴾ أي: عندنا ﴿ لَعَلِىٌّ ﴾ ذو منزلة عليا ، وشرف رفيع ، ومجد عظيم ، وفضل كبير ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي: محكم ، ليس فيه خلل ولا التباس ، ولا زيغ ، ولا عبث ولا باطل ، بل هو الحق المبين ، وفي هذا تنبيه للعباد على عظمة هذا القرآن الكريم ، وعلوِّ مجده وشرفه.

قال الله تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ ، وقال الله تعالى : ﴿ قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ فله المجد الأعلى ، وقال الله تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

روى الإمام الترمذي ، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الربُّ تبارك وتعالى: مَنْ شَغله القرآن عن مسألتي: أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ، وفضل كلام الله تعالى على سائر الكلام: كفضل الله على خلقه» كذا في (الترغيب).

ورواه الدارمي أيضاً في (سننه).

وروى البيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «فضل القرآن على سائر الكلام: كفضل الرحمن على سائر خلقه» وصححه في (الجامع الصغير).

فما أعظم هذا القرآن الكريم ، وما أجلَّه ، وما أشرفه ، وما أمجده؟

نعم إنَّه كلام الله تعالى المعجز ، أنزله على أكرم خلقه عليه ، وأحبِّهم إليه ، ألا وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي أرسله رحمة لجميع العالمين ، وفضَّله على جميع الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

جاء في الحديث ، عن أمير المؤمنين ، سيدنا علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أَمَا إِنَّها ستكون فتنة».

قلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كتاب الله تعالى ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحُكم ما بينكم ، هو الفصل[١] ليس بالهزل[٢] ، مَنْ تركه مِنْ جبَّار: قصمه الله تعالى ، وَمَنْ ابتغىٰ الهدى في غيره: أضلَّه الله تعالى.

وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تَشْبع منه العلماء ، ولا يَخلَق على كثرة الردِّ ، ولا تنقضي عجائبه.

وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾[٣] .

مَنْ قال به صدق، وَمَنْ عمل به أُجر، ومَنْ حكم به عَدَل، ومن دعا إليه هُدِي إلى صراط مستقيم» رواه الترمذي ، والدارمي في (سننه).

فيا أيها المسلمون والمسلمات: عظِّموا كتاب الله تعالى ، وأجلُّوه ، وأكثروا من تلاوته ، واعملوا بما جاء به ، وذلك بأن تأتمروا بأوامره ، وتنتهوا عما نهى عنه ، ولا تغرنكم الحياة الدنيا ، ولا زخارفها ، ولا أموالها ، ولا مظاهرها ، ولا يشغلنكم ذلك عن

---

(١) أي: هو الفاصل بين الحق والباطل.

(٢) هو كله جَدّ وحق ، لا هزل فيه ولا عبث ، فخذوه بجد وحزم ، وتعظيم وإجلال، ولا تتخذوا آيات الله هزواً ، ولا تساهل ولا احتيال ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ أي: فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، ولا تحتالوا في ذلك.

(٣) الرشد والرشاد ضد الغي والضلال.

تلاوته والعمل بما جاء به ، وسلوا الله تعالى أَنْ يجعل القرآن العظيم حُجَّةً لكم ، وشفيعاً بكم ، ولا يكون حجة عليكم.

فقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الطُّهور شَطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض ، والصلاة نور ، والصدقة بُرهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجة لك أو عليك ، كلُّ الناس يغدو ، فبائع نفسه: فمعتِقُها ـ أي: من النار ـ أو موبقها» أي: مهلكها في النار.

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «والقرآن حجة لك» إنْ عملتَ بما جاء به ، مِنْ أوامر عملية ، أو قولية ، أو خُلقيَّة ، وانتهيتَ عما فيه من المناهي والمحرمات.

ويكون حجة عليك إنْ خالفت ما جاء به ، فلم تعمل بأوامره ، ولم تنته عما نهاك وحذرك منه ، كالذي يقرأ قول الله تعالى ولا يرعوي ولا ينتهي:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ﴾ اتركوا ﴿ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ أي: من أنواع الربا كما كان عليه الجاهلية ﴿ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ أي: لم تتركوا الربا ﴿ فَأۡذَنُواْ﴾ أي: اعلموا ﴿ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ ﴾ نَصٌّ ظاهر قاطع بتحريم الربا كله ، ولا واحد في الألف.

وفي هـذه الآيـة تحذيـر شديـد مِنْ تعـاطي الحيـل ، وأساليب

المكر؛ الموصلة إلى الربا ، فالربا حرام كُلُّه ، قليله وكثيره ، ظاهره أو خفيه ، تحت ستار الحيل ، والمكر ، والأساليب الملتوية .

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «القرآن شافع مشفَّع ، وما حِل[1] مصدَّق ، مَنْ جعله أمامه ـ أي: عمل به ـ قاده إلى الجنة ، وَمَنْ جعله خلف ظهره ـ أي: لم يعمل بما جاء به ـ ساقه إلى النار» كذا في (الترغيب) .

وروى مسلم وغيره ، عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرؤوا الزهراوين[2]: البقرة وآل عمران ، فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان[3] ، أو غيايتان[4] ، أوْ فرقان[5] مِنْ طير صَواف: تحاجَّان عن صاحبهما ، اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البَطَلَة»[6] .

---

(١) الماحِل: بكسر الحاء ، والمراد به هنا: أنه يُحاول ويدافع عن صاحبه إن عمل به ، وخَصْم له إنْ لَم يعمل به .

(٢) تثنية الزهراء وهي: النيرة البيضاء .

(٣) تثنية الغمامة وهي: السحابة .

(٤) تثنية الغياية وهي: كل شيء أظلَّ الإنسان فوق رأسه .

(٥) أي: قطعتان ، وفرقتان من الطيور عظيمتان .

(٦) البطلة هنا السحرة ، والمعنى: أنّ قراءة سورة البقرة تكون حجاباً عظيماً من سحر السحرة ، لا يستطيعون خرقه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر ، إنَّ الشيطان يفرُّ من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة» رواه مسلم وغيره كما في (الترغيب).

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ الله كَتب كتاباً قَبل أَنْ يخلق السموات والأرض بألفي عام ، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ، لا تُقْرآن في دار ثلاث ليالٍ فَيَقربها شيطان» رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب ، ورواه النسائي ، وابن حبان في (صحيحه) كما في (الترغيب) وغيره.

فعلى كل مسلم ومسلمة أن يكثرا من تلاوة القرآن الكريم ، مع العمل بما جاء به من الأوامر ، والبعد عن ما نهى عنه ، ولا يتم ذلك إلا بالرجوع إلى السنة النبوية ، المشتملة على أعماله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأقواله ، وأخلاقه ، فإن السنة النبوية هي بيان للقرآن ملازمة له ، كما تقدم في الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «إني تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله تعالى ، وسنة نبيكم» صلى الله عليه وآله وسلم.

وصفه سبحانه وتعالى
لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه برهان

تقدم[١] أن الله تعالى قد وصف رسوله صلى الله عليه وآله وسلم

---

(١) ص/٦٩/.

في القرآن بأنه البينة ، وقد تقدم الكلام على ذلك ، كما وصفه بأنه صلى الله عليه وآله وسلم بُرهان ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ .

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أنَّ المراد بالبرهان هنا هو : سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وروى ابن عساكر ذلك عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى .

وقال في (شرح المواهب) : روى ابن أبي حاتم ، عن سفيان بن عيينة في : ﴿ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ قال : هو : سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وجزم به ابن عطية والنسفي ولم يحكيا غيره . اهـ .

وإنما وصفه سبحانه بأنه برهان لأنه حجة الله تعالى على خلقه كلهم ، وهو حجة نيرة ظاهرة واضحة ، لما جاء به من القرآن المعجز ، الذي أنزله الله تعالى عليه ، ولما جاء به من المعجزات التي أيده الله تعالى بها ، الدالة على صدقه ـ كما تقدم ـ صلى الله عليه وآله وسلم .

﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ وهو القرآن العظيم ، الذي فيه تبيان لكل شيء ، وتفصيل لكل شيء ، وما فرّط الله تعالى في الكتاب من شيء .

قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ

حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ .

أي: يعلمون أنه حق ، بعد ما عقلوا وفكروا فيما جاء ، فيؤمنون إيماناً جازماً، ولا يرتابون، ولا ينكرون ، ولا يجحدون ، تكبراً وتجبراً ، أوِ اتباعاً لأهوائهم الفاسدة ، وآرائهم الكاسدة.

وقد أخبرنا الله تعالى عن مواقف الأمم السابقة مع رسلهم ، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والأدلة ، قال الله تعالى في قوم صالح عليه السلام: ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ .

فالمستكبرون مِن قوم صالح عليه السلام وجَّهوا سؤالاً إلى المستضعفين الذين آمنوا بصالح عليه السلام ، وهو أنهم اتبعوا صالحاً عليه السلام وصدقوه: مسايرة ، أو تساهلاً منهم ، أو عن تغفل منهم وعدم تفكير ، أم أنهم اتبعوه وصدقوه بناء على علم منهم قاطع ، يُثبت لهم صدقه ، وأنه رسول الله حقاً ، بعد التفكر والنظر فيما جاء به.

فأجابوهم: ﴿ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ أيَ: مصدقون تصديقاً جازماً ، وإيماناً حقاً ، مبنياً على نظر وتفكر ، وعلم بحقية ما جاء به ، وأنه رسول الله حقاً ، لا يقبل الشك.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ .

ومن المعلوم في اللغة أن مادة الكفر من حيث الاشتقاق تعطي

معنى الستر والخفاء ، فيقال: الليل كافر ـ أي: ساتر بظلامه ـ فقولهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يريدون بذلك أنهم كافرون بصالح عليه السلام ، ولو جاء بأدلة ظاهرة تدل على صدقه ، كالناقة وغيرها ، فهم ساترون للحق ، ومكذبون به بعدما ظهر لهم ، وذلك بسبب كبرهم وعتوهم ، وتعاظمهم في أنفسهم عن قبول الحق ؛ ولو كان حقاً جازماً.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ[1] ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ فمن رأى أنه استغنى بماله أو عشيرته أو نحوهما ، يحمله ذلك على الطغيان والتكبر ، والإعراض عن قبول الحق.

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾

الرجعى: مصدر بمعنى: الرجوع ، وفي هذا تهديد ووعيد للطاغي الذي تكبر وأعرض عن الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ رجوعهم ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ ففي هذا كله تحذير للطغاة والبغاة ، والمعرض عن قبول الحق النازل من عند الله تعالى ، النازل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾.

---

(١) الطغيان هو: مجاوزة الحد ، والتعاظم النفساني.

فالله تعالى الذي خلق العباد هو حكيم عليم ، ومِنْ مقتضى حكمته سبحانه أن يتعهَّـد عباده بالهدي الإلَهي ، والبيانات الإلَهية ، التي تدلهم على ما ينفعهم ، وما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ، وتحذرهم مما يُفسدهم ويضرهم ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

فأنزل الله الكتب ، وأرسل الرسل صلوات الله على نبينا وعليهم ، وأعظم الكتب الإلَهية وأفضلها وأجمعها هذا القرآن العظيم ، والكتاب النازل على إمام الأنبياء والمرسلين ، وخاتمهم أجمعين ، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فما خلق الله تعالى العباد عبثاً ، أو باطلاً ، بل خلقهم خلقاً صادراً عن علمه وحكمته ، فإنه سبحانه هو العليم الحكيم ، فأمر العباد بالأوامر التي تضمن لهم مصالحهم وسعادتهم ، وكرامتهم ومنافعهم في الدنيا والآخرة ، ونهاهم سبحانه عما فيه فسادهم وشقاؤهم ، وخسرانهم في الدنيا والآخرة .

ولذلك قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا ﴾ أي : لا لحكمة ، ولا تشريع فيه بيان الأوامر والمناهي ، والحلال الذي فيه نفعكم ، والحرام الذي فيه ضرر عليكم ، وهذا كما بين الله تعالى ذلك في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ .

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه في معنى هذه الآية الكريمة ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ : أي : لا يُؤمر ولا يُنهى اهـ .

أي: بدون أن تتوجه إليه أوامر منَ الله تعالى تبين له طريق السعادة، ولا نهي يُحذره من الشقاء، ولذلك قال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾.

فَخَلْقُ العباد بلا تشريع وأمر ونهي؛ هذا عَبَث؛ والله تعالى منزه عن العَبَث.

وتشريع وأوامر ونهي بلا مسؤولية، ورجوع إلى الملك الحَكَم العَدْل؛ هذا باطل، ولذلك قال تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾.

أي: فتعالى الله وتنزه عن أن يخلق العباد ولا يُنزل عليهم أوامر، فيها سعادتهم، ومنافعهم ومصالحهم، ولا ينهاهم عما فيه فسادهم، وضررهم، وشقاؤهم، وتعالى الله أن يتركهم بلا مسؤولية ولا محاسبة على ذلك، بل لا بدَّ بمقتضى حكمته سبحانه أن يرجعهم إليه، للسؤال والحساب، والجزاء: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾.

فتعالى الله أن يُساوي بين المحسن والمسيء، والصالح والفاسد، والظالم والعادل، والباغي والمَبْغي عليه، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا﴾ أي: فعلوا ﴿السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا بدَّ من يوم الفصل، والجزاء، والسؤال، والحساب.

فالله تعالى لا يُساوي بين المحسن في عمله: مع الله تعالى،

ومع عباد الله تعالى؛ وبين المسيء المخالف لأوامر الله تعالى، والمسيء إلى عباد الله تعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فالساعة حقٌّ لا ريب فيها، وفيها يجري السؤال والحساب، وجزاء المحسن وثوابه، وجزاء المسيء وعقابه وعذابه.

وهذا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: بل خلقناهم بالحق، والحكمة ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾.

أي: أهل العقول السليمة، الخالصة من سيطرة الأوهام والأهواء الفاسدة عليها، فهم الذين يقتحمون بعقولهم حُجب الأهواء الفاسدة، والآراء الفاشلة، ويَصلون إلى لُباب الأمور ومقاصدها، وحكمتها، فهم أهل التذكر والتدبُّر في آيات الله تعالى القرآنية المتلوة، كما أنهم أهل التفكر في آيات الله تعالى التكوينية المرئية، فيفهمون ويعرفون الحكمة في خلقها، وأنها خلقت بالحق، ولم تخلق عبثاً ولا باطلاً، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ

وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ اللهم : آمين .

قول الله تعالى :

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾

الكلام حول هذه الآية له وجوه :

الوجه الأول : في سبب النزول :

روى الإمام مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال أبو جهل : هل يُعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟

يعني بذلك صلاته صلى الله عليه وآله وسلم عند البيت المعظم ، وسجوده على الأرض .

فقالوا : ـ أي : جماعة أبي جهل ـ نعم ـ أي : هو يصلي عند البيت ، ويسجد على التراب ـ .

فقال أبو جهل : واللاَّتِ والعُزَّى[1] لئن رأيته يفعل ذلك ، لأطأنَّ على رقبته ، أو لأعفِّرن[2] وجهه في التراب .

ثم إنَّه ـ أبا جهل ـ أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلي ـ أي : عند البيت المعظم ـ ليطأ على رقبته ، قال : فما فجأهم منه إلاَّ وهو ـ أبو جهل ـ يَنكص[3] على عقبيه ،

---

(١) أقسم أبو جهل باللاّت والعزَّى وهما أعظم الأصنام عندهم .

(٢) التعفير هو : التمريغ في التراب .

(٣) النكوص هو : الرجوع إلى وراء ، وهو القهقرى .

ويتقي[1] بيديه.

فقيل له: ـ أي: قال قومه له ـ مالَكَ؟ أي: راجعاً خائفاً.

فقال ـ أبو جهل ـ: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نارٍ، وهَوْلاً، وأجنحة ـ أي: أجنحة الملائكة التي جاءت لتختطفه ـ.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لو دنا مني لاختطفته[2] الملائكة عضواً عضواً»، فأنزل الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ إلى قوله ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

الوجه الثاني: حول قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾.

المراد بالذي ينهى أبو جهل، والمراد هنا **بعبد إذا صلَّى** هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أي: فما أجهل هذا الناهي، وما أضلَّه، وما أقبحه، وما أشد وقاحته، إنه ينهى عبداً إذا صلَّى ـ أي: ينهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة لربه تعالى ـ وهذا في أول الأمر حين كان صلى لله في مكة المكرمة.

ووصف الله تعالى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه عبد ـ أي: عبد الله ـ هذا من باب التشريف والتكريم، والتفخيم له صلى الله عليه وآله وسلم، فإنه أفضل العِباد والعُبَّاد، قد انفرد بأعلى منزلة في العبدية والعبودية، والعبادة لله تعالى.

---

(١) أي: يقي وجهه بيديه من النار التي رآها.
(٢) الاختطاف هو: الاستلاب بسرعة، والأخذ بشدة.

ولذلك وصفه الله تعالى في أعالي مراتبه صلى الله عليه وآله وسلم ومقاماته؛ بأنه عبد الله تعالى:

فقال سبحانه في مقام إنزال الكتاب المعجز، المهيمن على ما سواه، قال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ﴾.

وقال تعالى في مقام الإسراء والمعراج، الخاصَّين به صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾.

وقال الله تعالى في مقام التحدِّي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ الآية.

وقال الله تعالى في مقام النصر يوم بدر ـ وهو يوم الفرقان ـ: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. أي: متراكمين على بعضهم، ومتزاحمين حرصاً على سماع القرآن الكريم منه صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى البخاري، عن عطاء بن يسار قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في التوراة.

فقال: أجل إنه صلى الله عليه وآله وسلم لموصوف في التوراة

ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحِرْزاً للأمِّيين، أنت عبدي ورسولي» الحديث كما تقدم.

والمعنى: أنت عبدي المفضل على جميع العبادِ، وأنت رسولي المفضل على جميع الرسل، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وعلينا معهم آمين.

جاء في حديث دعاء الوسيلة عقب الأذان ما يلي:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إذا سمعتم النداء ـ أي: الأذان ـ فقولوا مثل ما يقول، ثم صَلُّوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة واحدة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة[1] لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد[2] الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فَمَنْ سأل الله لي الوسيلة حلَّتْ له الشفاعة» ـ أي: وجبت له الشفاعة يوم القيامة ـ رواه مسلم وأصحاب السنن كما في (التيسير).

وعن جابر رضي الله عنه، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ قال حين يسمع النداء ـ أي: الأذان ـ: اللهم ربَّ هذه الدعوة التامَّة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته؛ حَلَّتْ له شفاعتي

(١) أي: هي أعلى منزلة في الجنة، فوق المنازل كلها.
(٢) أي: عبد واحد كما في رواية الترمذي وأحمد، وبدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «وأرجو أن أكون أنا هو».

يوم القيامة» رواه البخاري وأصحاب السنن.

وجاء في رواية البيهقي زيادة في آخره «إنَّك لا تخلف الميعاد»[1].

وروى الإمام أحمد بإسناده، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إذا صليتم عليَّ فسلُوا ـ أي: سلوا الله ـ لي الوسيلة».

قيل: يا رسول الله وما الوسيلة؟

قال: «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو».

وروى الحافظ الطبراني، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «سلُوا الله لي الوسيلة، فإنه لَمْ يَسألها لي عبد في الدنيا إلا كنتُ له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة».

وروى ابنُ مَرْدويه بإسناده، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ الوسيلة درجة عند الله؛ ليس فوقها درجة، فسلوا الله أنْ يؤتيني الوسيلة على خلقه»[2].

فالوسيلة الوارد ذكرها في الأحاديث المتقدمة هي عَلَم على أعلى مَنْزلة في الجنة، وهي منزلة سيدنا رسول الله صلى الله عليه

---

(١) كما في (الترغيب).

(٢) انظر (تفسير) الحافظ ابن كثير.

وآله وسلم خاصَّة به ، وهي فوق المنازل كلها ، وأعلاها ، وأقربها إلى عرش الرحمن جل وعلا .

وفي تخصيص الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك؛ دليل على أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد نال أعلى مقام في شرف العَبْدية لله رب العالمين؛ لَم ينله غيره صلى الله عليه وآله وسلم[1] .

وقد وصف الله تعالى أنبياءه وأولياءه بأنهم عباده سبحانه ، تشريفاً وتكريماً ، كلٌّ واحد منهم على حسب مقامه الذي انتهى إليه في العبدية لله تعالى :

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ

---

(١) انظر كتاب (شهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ) .

يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾ الآية .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في معنى هذه الآية الكريمة : (لن يستكبر المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) اهـ أي : لأن العبودية لله تعالى فيها العز والشرف ، والكرامة .

وقال الله تعالى : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ .

وقد جاء في كثير من الآيات القرآنية وصفه سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين الصادقين بأنهم عباده ، ويضيفهم إليه تشريفاً وتكريماً لهم ، ومن تلك الآيات الكريمة :

قول الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ أي : يمشون على الأرض بسكينة ووقار ، من غير ترفّع ولا استكبار ، ولا مَرَح ولا أشر ولا بطر ، وليس المراد بقوله تعالى : ﴿ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ ليس المراد بذلك أنهم يمشون كالمرضىٰ والعَجَزَةِ ، وإنما المراد بالهون : السكينة والوقار ، من غير كِبْرٍ ولا مرح ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا﴾ .

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ والمعنى : أنهم ذووا أخلاق كريمة ، ونفوس عزيزة ، فإذا وَجَّه إليهم الجاهل السفيه

قولاً سيئاً ، وسَفَّهَ عليهم؛ لم يقابلوه بمثله ، ولا يقولون له إلاَّ خيراً.

روى الإمام أحمد بإسناد حسن ، عن النعمان بن مقرِّن المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - وَسَبَّ رجلٌ رجلاً عنده ، فجعل المسبوب يقول: عليك السلام - فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أَمَا إِنَّ ملكاً بينكما يذبّ عنك - أي: يدافع عنك يا مسبوب - كلَّما شتمك هذا - أي: السابّ - قال له - الملك -: بل أنتَ - أي: أنت يا سبابُ أنت السفيه ، وأنت المتصف بما تسبُّ به - وأنت أحق به ، وإذا قلت - أي: أيها المسبوب - إذا قلت له: وعليك السلام ، قال - أي: الملك -: لا بل عليك - أيها المسبوب - السلام ، وأنت أحقُّ به»[1] .

ويرحم الله تعالى القائل:

إذا نطق السَّفيه فلا تجبه فخير مِنْ إجابته السكوت[2]
سكتُّ عن السَّفيه فظنَّ أنّي عيِيتُ عَنِ الجواب وما عَييتُ[3]

وقال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ .

---

(١) كذا في تفسير الحافظ ابن كثير وغيره.
(٢) أي: لأنك إذا سَكَتَّ أجاب عنك المَلَك عليه السلام.
(٣) أي: وما عجزتُ عن الجواب ، ولكن ترفعت عن مُقابلة السفيه بالسفاهة.

وقال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾.

والمعنى: أَنَّ الأخلَّاء جمع خليل، وهم: المتحابُّون، فإن كانت محبتهم في الدنيا لبعضهم غير قائمة على الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم: فإن هذه المحبة تنقلب عداوة يوم القيامة، ووبالاً عليهم، وحسرة وندامة، وخزياً وملامة.

وأما الأخلَّاء المتحابون المتقون، الذين قامت محبتهم على الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وامتثال ما أمر الله تعالى به، وما أمرهم به رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الآية.

فهؤلاء الأخلاء المتحابون المتقون، يبشرهم الله تعالى يوم القيامة، حين تشتد أهوال الموقف، وتحيط الكربات والمخاوف على أهل الموقف، فإنه سبحانه وتعالى يناديهم مبشراً لهم:

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ أي: لا خوف عليكم فيما يأتي ، ولا أنتم تحزنون على ما مضى.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ أي: آمنوا بآيات الله التي جاءت بها رسلهم ، إيماناً قلبياً صادقاً ، جازماً قاطعاً ، بلا ريب ولا شك ﴿ وَكَانُوا۟ ﴾ أي: في الدنيا ﴿ مُسْلِمِينَ ﴾ مستسلمين لله تعالى فيما أمرهم ، فهم قائمون بأوامره سبحانه ، وممتثلون ، ومنتهون عما نهاهم عنه ، مُسلِّمين ، ومنقادين انقياداً صادراً عن إيمان ويقين ، بأن ما أمرهم الله تعالى به هو الحق الذي فيه خير الدنيا والآخرة ، وفيه سعادة الدنيا والآخرة ، وفيه صلاح الدنيا والآخرة ، وأَنَّ ما نهاهم عنه فيه الشقاء والعناء في الدنيا والآخرة.

فهؤلاء المتقون الأخلاء المتحابون في الله تعالى كل مؤمن يحب كل مؤمن في الله تعالى ، بشرهم الله تعالى وناداهم بقوله: ﴿ يَٰعِبَادِ ﴾ وأضافهم إليه تشريفاً وتكريماً ، فإن العبودية لله تعالى فيها الشرف الأكبر ، والفخر الأفخر ، كما قال الإمام القاضي عياض رحمه الله تعالى:

ومما زادني فخراً وتيهاً ... وكدتُّ بأخمصي[1] أطأ الثُريَّا
دخولي تحت قولك يا عبادي ... وجعلُك خيرَ خلقك لي نبيا

صلى الله عليه وآله وسلم.

وقوله: وجَعْلك خير خلقك لي نبياً: يريد بذلك أنَّ الله تعالى جَعَلَه من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، أفضل

---

(١) قال في (مختار الصحاح): الأخمص ما دخل مِنْ باطن القدم ، فلم يصب الأرض اهـ.

الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

فإنَّ ذلك ـ أي: كونه مِنْ أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ شَرَف كبير ، وفخر عظيم ، وقد امتن الله تعالى على هذه الأمة المحمدية ببعثته صلى الله عليه وآله وسلم ، وبين لهم أنها مِنَّةٌ كبرى ، ونعمة عظمىٰ ، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟﴾ أي: وإنه كانوا ﴿مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

فأخرجهم مِنَ الضلال المبين إلى نور الحق المبين.

جاء في الحديث ، عن منصور بن صفية قال: مرَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم برجل وهو يقول: الحمد لله الذي هداني للإسلام ، وجعلني من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لقد شكر عظيماً»[1].

فسيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو نعمة الله الكبرى ، ورحمته العظمىٰ المهداة للعالم ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أنا رحمة مُهداة»[2] أي: أهداها الله تعالى

---

(١) رواه الخرائطي والبيهقي في (الدعوات) كما في (الدر المنثور).
(٢) قال في (الجامع الصغير): رواه ابن سعد أي: في (الطبقات) ، والحكيم ، عن أبي صالح مرسلاً ، والحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه ورمز إلى صحته.

للعالمين ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنما بعثتُ رحمة ولم أُبعثْ عذاباً»[1] .

وقال الله تعالى : ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ الآية قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : (نعمة الله هو : سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، والذين بَدَّلوا نعمة الله كفراً هم الكفار من أهل مكة) أي : وسائر مَنْ كفر بسيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى يوم الدين ، فإنه صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للعالمين ، ونعمة كبرى من الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ .

وفي هذه الآيات الكريمة يذكر الله تعالى فضله على العباد ، ببعثة هذا الرسول الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم فيهم ، المعلوم بصدقه وأمانته ، منذ صغره؛ باعتراف أعدائه ، جاء يتلو على العباد آيات الله تعالى ، في حين أنه أُمِّيٌّ لم يَسبق له سابقة علم بالكتابة والقراءة ، فجاء يتلو آيات الله تعالى المعجزة ، الخارجة عن طوق المخلوقات : مِنَ الإنس والجن وما وراء ذلك ، وهي فيها الإعجاز من وجوه لا تُحصى ، واعتبارات لا تستقصىٰ ، ومن ذلك الإعجاز البلاغي ، والإخبار الغيبي عما مضى وما هو آت ، والإعجاز التشريعي الكافل لجميع مصالح العباد؛ في أمور الدنيا والمعاد .

---

(١) رواه البخاري في (تاريخه) عن أبي هريرة رضي الله عنه كما في (الجامع الصغير) رامزاً إلى حسنه .

وجاء صلى الله عليه وآله وسلم يزكيهم: قلوباً ، وعقولاً ، وقالباً ، وآداباً ، وأخلاقاً ، ومعاملة ، ومعاشرة.

وجاء صلى الله عليه وآله وسلم يعلمهم الكتاب ـ أي: القرآن العظيم ـ الجامع ، الذي فيه بيان كل شيء ، كما قال تعالى فيه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ .

وفيه من الحِكم الإلٓهية ، والأسرار الربانية ما لا يُحيط به عِلماً إلا الله تعالى.

وَيُعلمهم الحكمة وهي: السنة المشتملة على أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم: القولية ، والعملية ، والأدبية ، والخُلُقيَّة ، وما وراء ذلك ، وهي نازلة مِنْ عند الله تعالى بالوحي النبوي ، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ الآية.

وقد قرن الله تعالى في القرآن الكريم بَيْن الكتاب والحكمة في مواضع كثيرة ، كما قرن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بينهما.

روى الإمام مالك في (الموطأ) بَلَغَهُ أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «تركتُ فيكم أَمْرين لَنْ تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله تعالىٰ ، وسنة رسوله» صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي هذا الحديث وغيره تفسير للحكمة المقرونة بالكتاب في الآية المتقدمة وغيرها ، ولذلك ذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه إلى أن المراد بالحكمة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ قال: هي السنة ، وإلى هذا ذهب كثير من أئمة العلماء المتقدمين ، نفعنا الله تعالى بهم.

﴿ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي: من أمور لا سبيل لكم إلى العلم بها ، وإنما جاءت بوحي من الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ليعلمكم إياها.

روى الطبراني وغيره ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: تَرَكَنَا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما طائر يقلِّب جناحية في الهواء إلاَّ وهو يذكر لنا منه علماً ، قال: وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما بقي شيء يقرِّب مِنَ الجنة ويباعد من النار إلاَّ وقد بُيِّن لكم» أي: بينه لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فبين لهم، وعلَّمهم أموراً وعلوماً، حتى حدَّثهم عن عالَمِ الطير وغيره.

وروى مسلم في : (صحيحه) ، عن عياض المجاشعي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ ربي أمرني أَنْ أُعلِّمكم ما جهلتم مما علَّمني يومي هذا ـ أي: شيئاً مما علَّمني في يومي هذا[1] ـ.

كلُّ مال نحلتهُ ـ أي: مال حلال رزقته ـ عبداً حلال ـ أي: فلا تُحرموا ما أحلَّ الله تعالى لكم ـ.

وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلَّهم ـ أي: على الفطرة السلمية ـ وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم ـ أي: جذبتهم وحوَّلتهم ـ عن دينهم ، وحرَّمتْ عليهم ما أحللتُ لهم ، وأَمَرَتهم أنْ يُشركوا بي مَا لَمْ أُنزل به سلطاناً» الحديث وقد ذكرته بتمامه في تفسير (سورة

---

(١) وفي هذا دليل على أَنَّ الله تعالى يُفيض عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، ويُعلمه دائماً علوماً وعلوماً إلى ما لا نهاية.

الإنسان) أي: سورة الدهر ، وفصَّلت الكلام عليه ، والحمد لله رب العالمين.

وروى مسلم وغيره ، عن عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً الفجر ، وصعد المنبر ، فخطبنا حتى حضرتِ الظهر ، فنزل فصلى ، ثم صعِد المنبر صلى الله عليه وآله وسلم ، فخطبنا حتى حضرت العصر ، فنزل فصلى صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى غربتِ الشمس ، فَأَخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فَأعلمنا أَحفظنا).

فانظر يا أخي في هذه المعجزة الكبرى ، الدالة قطعاً على صدق نبوَّته ، وحقيَّة رسالته ، وقد ظهرت هذه المعجزة في خطبته الجامعة ، التي اشتملت على أنواع من المعجزات ، وخوارق العادات:

أولاً: إخباراته عما هو كائن إلى يوم القيامة ، فما ترك شيئاً سوف يكون إلى قيام الساعة إلا ذكره.

ثانياً: وحي الله تعالى إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وإطلاعه على جميع ما سيجري إلى يوم القيامة ، وإعلام الله تعالى له بذلك ، على وجه لا ينساه صلى الله عليه وآله وسلم.

ثالثاً: قيامه صلى الله عليه وآله وسلم على منبره الشريف مِنْ بعد صلاة الفجر إلى غروب الشمس ، يخطب على وجه متتابع متلاحق ، لم يتوقف عن متابعة إخباره وتحديثه ، سوى مدة صلاتي الظهر والعصر ، ولم يَشعر بتعب ولا نصب ، ولا جُوع ولا عطش ، ولا ملل.

رابعاً: إمداد الله تعالى لأصحابه صلى الله عليه وآله وسلم بالقوة ، والإصغاء التامّ لما يخبرهم عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويحدثهم عنه في خطبته ، فلم يَشْكُ أحد منهم مَلَلاً ولا سآمة ، ولم يُصبهم جُوع ولا عطش ، ولا أيُّ مانع يَحول دون سماعهم ، وإصغائهم إليه صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا أمر خارق للعادة ، أكرمهم الله تعالى به؛ بسبب فضله صلى الله عليه وآله وسلم وكرامته على الله تعالى.

خامساً: حفظ الصحابة رضي الله عنهم ، واستيعابهم لجميع ما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وما نسيه الواحد منهم بعد ذلك بمدة كان محفوظاً عند الآخر ، وَقَد بَلَّغ كلُّ واحد منهم ما حفظه ، امتثالاً لأمره صلى الله عليه وآله وسلم حيث أمرهم أَنْ يُبَلِّغوا عنه ما سمعوه منه:

روى البخاري ، والترمذي ، عن عبد الله بن عَمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بلِّغوا عني ولو آية» الحديث.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نضَّر[1] الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعى من سامع» قال في (التيسير): رواه الترمذي وصححه[2].

---

(١) معناه حسّنه وجمّله ، ولذلك قال العلماء: من علامة المحدثين نَضْرة في وجوههم ونور.

(٢) وقال في (الترغيب): رواه أبو داود والترمذي ، وابن حبان في=

ولذلك كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخافون أن يموت أحدهم وعنده حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لَمْ يُبَلِّغه ، وقد سمعه منه صلى الله عليه وآله وسلم.

روى البخاري ـ مُعلَّقاً ـ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: لو وضعتم الصمصامة ـ أي: السيف ـ على هذه ، وأشار إلى قفاه ـ أي: قفا عنقه ـ ثم ظننتُ أني أُنفذ كلمة ـ أي: أتكلم بكلمة ـ سمعتُها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قبل أنْ تُجيزوا[1] عليَّ لأنفذتها ـ أي: لبلَّغتها ـ.

وهكذا الصحابة كل واحد منهم قَد بلَّغ ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، سواء كان حفظاً حفظوه ، أو كتابة كتبوه ، أو جمعاً بين الحفظ والكتابة.

فقد بلَّغوا جميع أحاديثه صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يُهملوا شيئاً مِنْ ذلك ، وتلقاها عنهم التابعون ، فمنهم الحافظ ، ومنهم الكاتب ، ومنهم الجامع بَيْن ذلك ، وهكذا التابعون بَلَّغوا أتباع التابعين فَدوَّنوها، وجمعوها في كتب مصنفة متعددة، فمنها الجوامع ، ومنها المسانيد ، ومنها السُّنن ، ومنها المعاجم ، ومنها الموطآت ، ومنها الأجزاء الحديثية ، ومنها السِّير ، ومنها ومنها . . .

ويرحم الله تعالى القائل:

إليكَ وإلاَّ لا تُشدُّ الرَّكائب ... وَعَنك وإلاَّ فالمحدِّث كاذب

= (صحيحه) بلفظ: «رحم الله امرءاً».

(١) أي: قبل أن يقطعوا عنقه بالسيف.

وحبُّكَ يا خير النبيين مَذْهبي وللناس فيما يعشُقون مذاهب

صلى الله عليه وآله وسلم

الوجه الثالث: حول قوله تعالى: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾:

في هذه الآية إشارة إلى أَنَّ لله تعالى حقاً على العباد أن يعبدوه سبحانه، لأنَّه ربهم وهم عباده، وأَنَّ أهم العبادات هي الصلاة لربِّ العالمين سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وأنتم تعلمون أن الذي خلقكم هو الله ربُّ السماوات الأرض وما بينهما، وأَنَّ الأصنام لم تخلقكم، وليس لها شركة في خلقكم، بل هو سبحانه وتعالى الخلاَّق وحده، فقوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ الآية، في هذا تنبيه للعباد أَنَّ لله تعالى حقاً على عباده أَنْ يعبدوه، لأنه هو وحده ربهم ـ أي: خالقهم ورازقهم، ومربيهم، وبيده الأمر كله ـ والكل عباده.

وقد جاء في (الصحيحين)، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أَنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده»؟

قلت: الله ورسوله أعلم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حقُّ الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» الحديث.

كما أَنَّ قوله تعالى: ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ فيه إشارة إلى عظم أمر الصلاة، وأن الصلاة شأنها كبير، يجب المحافظة عليها.

جاء في الحديث، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنَّ أوَّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صَلَحتْ فقد أفلح وأنجح، وإنْ فسدت فقد خاب وخسر، وإن انتقص مِنْ فريضة شيئاً قال الربُّ تبارك وتعالى للملائكة: انظروا هل لعبدي من تطوع ـ أي: نافلة ـ فيكمَّل بها ما انتقص من الفريضة، ثم يكون سائر عمله على ذلك» رواه الترمذي والنسائي كما في (التيسير).

قـول الله تـعـالـى:

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾

الكلام على ذلك له وجوه:

الأول: في هذه الآية الكريمة توبيخ وتقريع، وتسخيف وتعنيف لأبي جهل الضليل، الذي راح يَنهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة لربه، وهو صلى الله عليه وآله وسلم على هدى من الله تعالى، وجاء بالهدى من عند الله تعالى، كما أنَّه صلى الله عليه وآله وسلم جاء آمراً بتقوى الله تعالى، فما لهذا الضَّال الطاغي، والسفيه الباغي أبي جهل، ينهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة لله تعالى، عابداً لربه، على هدىً من الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ .

الوجه الثاني: في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ .

التقوى هي: التوقي من عذاب الله تعالى ، وغضبه ، وعقابه ، وعتابه ، وذلك إنما يكون بامتثال أوامره سبحانه ، واجتناب ما نهى عنه سبحانه وتعالى ، متوقياً ومتباعداً عن الوقوع فيها ـ أي: في المنهيات التي نهى الله تعالى عنها ـ.

وقد جاء في خطبته صلى الله عليه وآله وسلم لما قَدِم المدينة المنوَّرة بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم ، قال في خطبته:

«واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلانية ، فإنَّه من يتق الله يُكَفِّر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ، وَمَن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإنَّ تقوى الله تقي مَقْتَه ، وتقي عقوبته ، وتقي سخطه ، وإنَّ تقوى الله تعالى تبيض الوجه ، وترفع الدرجة» الحديث كما رواه ابن جرير وغيره.

فتقوى الله تعالى هي: أن يَتَوقَّى العبد ما فيه غضبُ الله تعالى ، وعذابه ، وعقابه ، وعتابه ، وحجابه ، متباعداً عن ذلك كله.

سأل رجل أبا هريرة رضي الله عنه عن التقوى؟

فقال له أبو هريرة رضي الله عنه: (هل أَخَذْتَ ـ أي: سلكتَ ـ طريقاً ذا شوك)؟

فقال الرجل: نعم.

فقال له أبو هريرة رضي الله عنه: (كيف صَنَعتَ)؟

فقال الرجل: إذا رأيتُ الشوك عَزَلْت عنه، أو جاوزته، أو قصَّرت عنه.

فقال أبو هريرة رضي الله عنه: (ذاك التقوى) اهـ.

وأخذ معنى هذا الجواب ابن المعتمر فقال:

خَلِّ الذنوب صغيرها وكبيرها فهو التُّقى
واصنع كماشٍ فوق أر ض الشوك يَحذر ما يَرى
لا تحقرنَّ صغيرة إنَّ الجبال من الحصى

والتقوى هي: وصية الله تعالى لجميع خلقه، ولجميع الأمم المتقدمة، ولهذه الأمة المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: وأوصيناكم يا أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾.

كما أنَّ التقوى هي وصية سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأمته عامَّة وخاصة:

جاء في الحديث، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظنا رسول الله مَوْعظة وجلتْ منها القلوب، وذَرَفتْ منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودِّع فأوصنا.

قال: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل، والسمع والطاعة» الحديث

رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح.

وجاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله أوصني.

قال: «أوصيك بتقوى الله تعالى فإنه رأس الأمر كله» الحديث، رواه ابن حبان في (صحيحه) ورواه غيره.

وروى الإمام أحمد، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أوصني.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أُوصيك بتقوى الله فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام».

ورواه غير أحمد ولفظه: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «عليك بتقوى الله تعالى فإنه جِمَاعُ كل خير».

وعن معاذ رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اتَّقِ الله حيثما كنتَ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن» رواه الترمذي وصححه.

كما أَنَّ تقوى الله تعالى هي وصية الصحابة بعضهم لبعض:

لما حضرت أبا بكر رضي الله عنه الوفاة، وعهدَ إلى عمر رضي الله عنه بالخلافة، فكان أول ما قال له: «اتق الله يا عمر».

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما (أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله عز وجلَّ، فإنه من اتقاه وقاه). اهـ.

واستعمل سيدنا علي أمير المؤمنين رضي الله عنه رجلاً على

سرية فقال له: (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا بدَّ لك من لِقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة). اهـ.

كما أنَّ التقوى هي وصية السلف الصالح لبعضهم:

لما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز الخلافة، حمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: (أوصيكم بتقوى الله عز وجل، فإنَّ تقوى الله عز وجل خَلَف من كل شيء، وليس مِنْ تقوى الله خلف). اهـ.

أي: هي تُغني عن كل شيء، ولا يغني عنها شيء؛ لا مال ولا بنون، ولا جاه، ولا عشيرة ولا ولد.

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى إلى رجل: (أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا يقبل غيرها، ولا يرحم إلا أهلها، ولا يُثيب إلاَّ عليها، فإنَّ الواعظين بها ـ أي: بالتقوى والآمرين بها ـ كثير، وإنَّ العاملين بها قليل، جعلنا الله تعالى وإياك من المتقين). اهـ. آمين.

فضائل تقوى الله تعالى والمكرمات المرتبة عليها

هي كثيرة جمة، جاء بيانها في الكتاب والسنة، أذكر بعضاً منها:

الأولى: مَنْ أَراد الولاية ـ بأن يكون من أولياء الله تعالى ـ فعليه بتقوى الله تعالى، فقد أعلن الله تعالى ذلك، ونبه عباده إلى ذلك فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ

ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ .

اللهم اجعلنا منهم بجاه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أما البشرى لهم في الحياة الدنيا:

فقد روى الترمذي ، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ؟ .

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هي الرؤيا الصالحة ، يراها العبد المؤمن ، أو تُرى له» كذا في (التيسير).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لم يبق بعدي من النبوة إلاَّ المبشِّرات».

قالوا: وما المبشرات؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «الرؤيا الصالحة» رواه البخاري ، ومالك وزاد: «يراها الرجل المسلم ، أو تُرى له» كذا في (التيسير).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الرسالة والنبوة قد انقطعتا ، فلا رسول بعدي ولا نبيَّ ، ولكن المبشرات».

قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «رؤيا المسلم ـ أي: الصالحة ـ وهي جزء من أجزاء النبوة» عزاه في (الدر المنثور) إلى ابن

أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي وصححه.

وأما البشرى لهم في الآخرة فهي الجنة:

جاء في الحديث ، عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ ؟.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «ما سألني عنها أحد غيرك منذ أُنزلتْ ، هي: الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ، فهي بُشراه في الحياة الدنيا ، وبشراه في الآخرة الجنة»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هي في الدنيا: الرؤيا الصالحة ، يراها العبد الصالح أو ترى له ، وفي الآخرة الجنة»[٢].

وهذا كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

---

(١) عزاه في (الدر المنثور) إلى الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن أبي شيبة وغيرهم.

(٢) قال في (الدر المنثور): رواه ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مَرْدُوْيه اهـ.

اللهم اجعلنا منهم بجاه حبيبك الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: مَنْ أراد أَنْ يكون الله تعالى مَعَهُ بالنصر والتأييد، والتوفيق والتسديد، فعليه بتقوى الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾.

وهذه معية خاصة، وهي على مراتب: فهناك معية للأتقياء، وهناك معية للأنبياء، كما قال سبحانه وتعالى لموسى وهارون صلوات الله تعالى على نبينا وعليهما: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾، وقال الله تعالى مخبراً عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يعني بكلمة الذين كفروا الشرك، وكلمة الله هي: لا إله إلا الله).

وجاء في (الصحيحين)، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

وأما معيته سبحانه وتعالى العامَّة لجميع عباده فهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ أي: بعلمه المحيط بهم، وَسَمعه لكلامهم، ورؤيته لهم؛ مهما أَسَرُّوا، وأخفوا واستخفوا.

الثالثة: مَنْ أراد الخروج من الشدائد والمضايق، وأراد سعة الرزق: فعليه بتقوى الله تعالى:

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أي: من جهة لا تخطر على باله، ولا يدري بها ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ أي: منفذ قضاءه وأحكامه في خلقه، كما يريده ويشاؤه سبحانه ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾.

روى الإمام أحمد، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: جعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتلو عليَّ هذه الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ حتى فرغ من الآية، ثُم قال: «يا أبا ذر، لو أَنَّ الناس كلهم أخذوا بها كفتهم».

قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنَّ أجمع آية في القرآن هي: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ الآية.

قال: وإنَّ أكبر آية في القرآن فرجاً: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ الآية.

الرابعة: مَنْ أَراد أن يجعل الله تعالى له نوراً يُفرق به بين الحق والباطل؛ فعليه بتقوى الله تعالى:

قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

وهذا الفرقان قد فسرته الآية الثانية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الخامسة: مَنْ أراد حسن العواقب في الدنيا والآخرة؛ فعليه بتقوى الله تعالى:

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: والعاقبة الحسنة ملازمة وتابعة للتقوى.

ومعنى الآية الكريمة: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: لأنك راعيهم، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ﴾ أي: وأنت اصطبر على أداء الصلاة كاملة، بقيامها وركوعها وسجودها، دون استعجال في أدائها؛ توفيراً لوقت الاشتغال في أعمال الدنيا، والسعي في الرزق، ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ﴾ أي: ما نطلب منك أن ترزق نفسك حتى تستعجل في أداء الصلاة لربك، وتنهمك في طلب رزقك، ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ﴾ أي: هو سبحانه المتكفل برزق الإنسان،

كما قال سبحانه: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ ، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ .

فما على الإنسان إلا أن يقوم بعبادة الله تعالى ، ويؤدي أوامر الله تعالى كاملة ، ويسعىٰ في طلب رزقه ، دون أن يشغله ذلك عن القيام بأوامر ربه وعبادته؛ ورزقه على ربه سبحانه وتعالى.

روى ابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تعالى: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنىً ، وأسدُّ فقرك ، وإنْ لم تفعل: ملأت صدرك شغلاً ولم أسد فقرك».

وروى ابن ماجه أيضاً ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «مَنْ جعل الهموم هماً واحداً؛ همَّ المعاد: كفاه الله تعالى همَّ دنياه ، ومن تَشَعَّبتْ به الهموم في أحوال الدنيا: لم يبال الله في أيِّ أوديته هلك».

فعلى المؤمن أن يكون أكبر همه الآخرة ، ويسعى لها سعيها ، ولا يكن أكبر هَمِّه الدنيا ، ومالِها وحطامها وزخارفها.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وسوف تُترك وتفنى ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ فالباقيات التي تنفع صاحبها هي: الصالحات من الأعمال ، والأقوال ، والأخلاق.

جاء في الحديث ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أَنَّ

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «استكثروا من الباقيات الصالحات».

قيل: وما هنَّ يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «التكبير، والتهليل، والتسبيح، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[1].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله: فإنَّهنَّ الباقيات الصالحات، وهنَّ يَحْطُطْنَ الخطايا كما تحطّ الشجرة ورقها، وهي من كنوز الجنة»[2].

ويرحم الله تعالى القائل:

يا من بدنياه اشتغل	وغرَّه طُول الأمل
الموت يأتي بَغْتةً	والقبر صندوق العمل

السادسة: كرامة العبد عند الله تعالى على حَسَبِ تقواه لله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

روى الإمام البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيُّ الناس أكرم؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أكرمهم عند الله أتقاهم».

---

(١) قال في (الترغيب): رواه أحمد، والنسائي واللفظ له.

(٢) رواه الطبراني، ورواه ابن ماجه باختصار كما في (الترغيب).

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: «فأكرم الناس يُوسف، نبي الله ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله».

قالوا: ليس عن هذا نسألك.

قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟

قالوا: نعم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا» أي: فقهوا في دينهم، اعتقاداً وعملاً وخُلقاً.

وروى الإمام أحمد، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال له: «انظر فإنك لستَ بخير من أحمر ولا أسود، إلاّ أن تفضله بتقوى الله عز وجلّ».

وإنَّ أتقىٰ خلق الله لله تعالى، وأخشاهم له، وأعلمهم به، هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إمام الأنبياء والمرسلين، الذين أعلَمنا بذلك، وأعلن ذلك، متحدثاً بنعمة ربه تعالى الذي قال له: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، فهو أكرم الخلق عند الله تعالى، وأكرمهم عليه، صلى الله عليه وآله وسلم.

روى الشيخان، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: صَنعَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً تَرَخَّص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغه، فخطب صلى الله عليه وآله وسلم فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «ما بال أقوام يتنزَّهون عن الشيء أصنعه، فوالله إنّي لأعلمهم بالله، وأشدّهم له خشية».

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رَهْط إلى بُيوتِ أزواج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، يسألون عن عبادته ، فلما أُخبروا كأنهم تَقَالُّوها ، قالوا: أين نحن من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّرَ.

فقال أحدهم: أمَّا أنا فأصلي الليل أبداً.

وقال الآخر: وأنا أصوم الدَّهر ولا أفطر.

وقال آخر: وأنا أعتزل النساء ، ولا أتزوج أبداً.

فجَاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليهم فقال: «أنتم الذين قُلتم كذا وكذا؟ أَمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رَغِبَ عن سنتي فَليس مني» رواه الشيخان والنسائي كما في (التيسير).

فليس الدين الإسلامي هو اُتباع آراء المتشدِّدِين ، ولا أهواء المتفلتين، وإنما دين الإسلام هو اتباع سيد المرسلين؛ سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن الهُدىٰ الذي جاء به هو فوق كل هدى ، ولقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول في خطبته: «أمَّا بعد: فإن خير الحديث كتاب الله تعالى ، وَخير الهدي هَديُ محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشر الأمور محدثاتها ، وكلّ بدعة ضلالة».

ثم يقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أَوْلَىٰ بكلِ مؤمن مِنْ نفسه ، مَنْ ترك مالاً فلأهله ، وَمَنْ ترك دَينا أو ضياعاً ـ أي: عيالاً وأطفالاً فقراء ـ فإليَّ وَعَلَيَّ»[1].

---

(١) قال في (الترغيب): رواه مسلم ، وابن ماجه وغيرهما.

وجاء في رواية لأحمد وغيره: «أما بعد: فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وإنَّ أفضل الهدي هدي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[١] الحديث.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أَعْلَمُ خَلق الله تعالى، وأتقاهم، وأخشاهم له، وأكرمهم عليه سبحانه وتعالى.

روى الترمذي، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أَوَّلُ الناس خروجاً إذا بُعثوا، وأنا خطيبهم إذا وَفَدُوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، ولواء الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر».

وروى الترمذي أيضاً، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة كنتُ أنا إمام النبيين وخطيبهم، وصاحب شفاعتهم؛ غير فخر» أي متحدثاً بنعمة الله تعالى.

---

(١) انظر (الجامع الصغير).

مراتب التقوى

وأما مراتب التقوى: فإنّ التقوىٰ على مراتب متعددة ، ترجع إجمالاً إلى خمس مراتب:

الأولى: هي تقوى الكفر والشرك ، وذلك باجتناب ما يُوجب الكفر ، والابتعاد عن الوقوع في الشرك الأكبر ، وهو: أن يَجْعل مع الله تعالى إلّهاً آخر ، وهذا معلوم ، وأنواع الكفر مفصلة في بحث الردة من كتب الفقه.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

روى أصحاب السنن ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرأ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قال ربكم: أنا أهل أَنْ أُتقىٰ ، فَمَنْ لَم يَجْعَل مَعِيَ إلّهاً آخر فأنا أهل أن أغفر له».

وفي رواية: «فمن اتقاني فَلَمْ يجعل معي إلّهاً آخر فأنا أهل أن أغفر له».

وهذا نظير قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

فأمر العصاة معلق على مشيئته سبحانه؛ إنْ لم يتب العاصي من معاصيه: إنْ شاء غفر له وإن شاء عذبه ، كما جاء ذلك مصرحاً به في الأحاديث النبوية ، وقد ذكرت ذلك مفصلاً في (تفسير سورة الحجرات).

المرتبة الثانية: هي تقوى المحرمات:

روى الترمذي وغيره، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اتق المحارم تَـكُنْ أعبد الناس، وارض بما قسم الله تَكُنْ أَغنى الناس، وَأَحْسِنْ إلى جارك تكن مؤمناً، وأحبَّ للناس ما تُحب لنفسك تكن مسلماً، ولا تكثرِ الضحك فإنْ كثرة الضحك تميت القلب».

وفي هذا يقول الحسن البصري رضي الله عنه: المتقون هم الذين اتقوا ما حرم الله تعالى عليهم، وأدَّوا ما افترض الله تعالى عليهم. اهـ.

المرتبة الثالثة: اتقاء الشبهات:

روى الشيخان وغيرهما، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحلالُ بَـيِّـن، والحـرام بَيّـن، وبينهمـا أمـور مشتبهـات، لا يَعلمُهُـنَّ كثيـر مِـنَ الناس، فَمَنِ اتَّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ـ أي: حصَّل البراءة لدينه وعرضه ـ وَمَنْ وَقَع في الشبهات وَقَع في الحرام، كراعٍ يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أنت يُواقعه، أَلاَ وإنَّ لِكُلِّ مَلك حمى، أَلاَ وإنَّ حِمَىٰ الله في أرضه محارمه.

أَلاَ وإنَّ في الجسد مُضْغَةً، إذا صَلحت: صلح الجسد كله، وإذا فسدت: فسد الجسد كلُّه، أَلاَ وَهِيَ القلب»[1].

المرتبة الرابعة: اتقاء ما لا بأس به مِنَ المباحات، مَخافة

---

(١) والكلام على هذه المرتبة مفصلاً تجده في (تفسير سورة الحجرات).

الوقوع فيما به بأس ، وهو الوقوع في المنهيات ، أو المكروهات والشبهات :

روى الترمذي ، عن عطية السعدي رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : «لا يبلغ العبد أَنْ يكون من المتقين حتى يَدَع - أي : يترك - ما لا بأس به حذراً مما به بأس» رواه ابن ماجه ، والحاكم.

وفي ذلك يقول الحسن البصري رضي الله عنه : مازَالت التقوىٰ بالمتقين حتى تركوا كثيراً من الحلال مخافة الحرام . ا هـ.

المرتبة الخامسة : تقوى الله حَقَّ تقاته :

قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ أي : مستسلمون منقادون لله تعالىٰ ، إيماناً واعتقاداً ، وعملاً وقولاً ، وقياماً وقعوداً ، وعلى جنوبكم.

جاء في (مسند) الإمام أحمد وغيره ، أَن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لعبد الله بن عمرو بن العاص : «قل : اللهم احفظني بالإسلام قائماً ، اللهم احفظني بالإسلام قاعداً ، اللهم احفظني بالإسلام راقداً ، اللهم لا تُشْمِت فيَّ عَدوّاً ولا حاسداً» الحديث.

وروى الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «اتقوا الله حق تقاته ؛ أَنْ يُطاع فلا يُعصىٰ ، وأَنْ يُذكر فلا يُنسىٰ».

وجاء من طريق أخرى عن الحاكم ، وابن مَرْدويه ، وعبد الرزاق ، وغيرهم ، عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ قال : «أَنْ يُطاع فلا يُعصى ، ويذكر

فلا يُنسى ، ويُشكَر فلا يُكفر» وروي مرفوعاً وموقوفاً.

وروى أصحاب السنن ، والإمام أحمد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لو أَنَّ قطرة من الزَّقوم قَطَرت ـ أي: على الدنيا ـ لأفسدتْ على أهل الأرض عيشهم ، فكيف بمن ليس له طعام إلاّ من الزقُّوم» ـ أي: وهم أهل جهنم ـ ، والعياذ بالله تعالى.

فتقوى الله تعالى بها يتفاضل المؤمنون ، وبها تختلف درجاتهم ، ومنازلهم وكرامتهم عند الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ فأمر سبحانه بالمسارعة ، وأمر في الآية الثانية بالمسابقة ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

اللهم اجعلنا منهم يا ذا الفضل العظيم ، بجاه حبيبك الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، الذي أنزلتَ عليه هذا القرآن العظيم ـ آمين.

وإنَّ التزوّد للآخرة هو الذي ينفع صاحبه يوم القيامة ، وهو التقوى ، فإنّه خير الزاد ، قال الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾.

فلما أمر الله تعالى العباد أن يتزودوا للأسفار في الدنيا؛ أرشدهم إلى زاد الآخرة ، ذلك السفر الطويل الذي لا رجعة

بعده ، وهو استصحاب التقوى ، فإنها خير زادٍ ليوم المعاد .

كما أمر سبحانه عباده باللباس في الدنيا فقال : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ ﴾ ثم أرشدهم سبحانه إلى لباس الآخرة ، وهو التقوى ، فقال سبحانه : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1] .

وقد بين الله تعالى أن المتقين يُحْشرون إلى الرحمن وفداً ، قال الله تعالى : ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴿٨٥﴾ ﴾ أي : مكرمين بوفادتهم على أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، لا يعتريهم ذلٌّ ولا هوان ، بل أعزة كرام ، في سرور وأمان .

يريد المرء أن يحظىٰ مناه[2] ويـــأبـــىٰ الله إلاّ مـــا أراد
يقـول المـرء فـائـدتـي ومـالـي وتقـوى الله أفضـل مـا استفـاد

قـول الله تعـالـى :

﴿ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾

يعني : أبا جهل الضال إنْ كذب بكتاب الله عز وجل الذي أنزله الله تعالى عليك يا رسول الله ، وفيه القرآن المعجز ، والبينات الساطعة ، والحجج القاطعة ، على حقِّيَّة رسالتك وصدق نبوتك .

﴿ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ وأعرض عن الإيمان بك يا رسول الله وبما جئت به ، وراح يُعارضُ ويعاند ، ويجحد ، ويحاول منعك عن الصلاة لربك

---

(١) وقد ذكرت في (تفسير سورة الحجرات) أموراً هامةً حول التقوى لم أذكرها هاهنا اكتفاء بذلك ، فارجع إليها .

(٢) أي : من الدنيا وزخارفها .

سبحانه وتعالى ، وفي كل مرة يَرجع خاسِئاً ذليلاً ضالاً ضليلاً .

﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ فهو سبحانه يرىٰ كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ ﴾ أي: لا يغيب ﴿ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

فهو سبحانه وتعالى يرى جميع ما يُحاوله أبو جهل الضال مِنْ مُمَانعته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الصلاة ، وما وراء ذلك ، وإن ربك لبالمرصاد ، ولذلك قال سبحانه وتعالى :

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾

﴿ كَلَّآ ﴾ ردع وزجر لأبي جهل عن غيِّه وضلاله وطغيانه .

﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ ﴾ اللام موطئة للقسم أي: والله لئن لم ينته أبو جهل عما هُوَ فيه ، ولم ينزجر ويرتدع عن عداوته ، وطغيانه ومعارضته ، قوله تعالى: ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ أي: لنأخذنَّ بناصيته بشدة ، ولنسحبنه إلى النار يوم القيامة ، والسَّفْع هو: الجذب بشدة ، أي: لنجرنَّ بناصيته إلى النار بشدة وغلظة.

قال العلامة القرطبي رحمه الله تعالى: والناصية هي: شعر مقدَّم الرأس ، وقد يُعَبَّر بها عن جملة الإنسان ، كما يقال هذه ناصية مباركة؛ إشارة إلى جميع الإنسان ، وخصَّ الناصية بالذكر ـ أي: في قوله تعالى: ﴿ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴾ ـ على عادة العرب فيمن أرادوا إذلاله وإهانته: أخذوا بناصيته.

وقيل: السَّفْع: الضرب أي: لَنَلْطُمَنَّ وجهه، وكلها متقاربة المعنى، أي: يُجمع عليه الضرب عند الأخذ، ثم يُجرُّ إلى جهنم. اهـ.

قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾

أي: ناصية أبي جهل كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها، أي: صاحبها كاذب خاطىء، وفي هذا إشارة إلى شِدَّة كذبه، وخطيئته، كأن كل جزء من أجزائه كاذب خاطىء.

والخاطىء هو: مَنْ تعمَّد فعل الخطيئة ـ أي: الذنب ـ **والمخطىء**: من أراد الصواب فصار إلى غيره، فالخاطىء معاقب مأخوذ بخطيئته وذنبه، فافهم الفارق بينهما.

وأيُّ كذب أقبح مِنْ كَذِب أبي جهل، الذي كان يَكذب على الله تعالى فيقول: إنَّ الله لم يرسل سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، ويكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: إنه ساحر.

كَمَا أَنَّ أفعال أبي جهل مَجْمَع الخطايا والذنوب، والقبائح والعيوب: كِبرٌ وعناد، وتكذيب وجحود، فإنَّه عَلِمَ صِدْق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعرف حَقِّيَّة القرآن الذي جاء به، ولكنه لم يعترف، بل راح يكذب ويجحد؛ تكبراً وعناداً، وجهالةً جهلاء، وعصبية عمياء كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ والمعنى: إنهم يعلمون أنك يا رسول صادق، ولكنهم يجحدون ذلك، وينكرون، بعدما تبين الحق، وعلموا أنه الحق.

قـول الله تـعـالـى:

﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾

سبب نزول ذلك، ما رواه الترمذي وصححه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصلي ـ أي: في المسجد الحرام ـ فجاء أبو جهل: فقال: أَلَم أَنْهك عن هذا؟ ـ أي: عن الصلاة ـ فانصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فزبره ـ أي: زجر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا جهل وأَغْلظ له القول ـ.

فقال أبو جهل: إنَّك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني، فنزل قول الله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: (والله لو دعا ـ أبو جهل ـ ناديه لأخذته زبانية الله تعالى).

النادي هو: المجلس الذي يَنتدي فيه القوم ـ أي: يجتمعون فيه ـ والمراد هنا أهل النادي، والمعنى: فليدع أبو جهل أهل ناديه، ومجلسه وعشيرته، وَلْيَستنصر بهم.

﴿ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: (يعني: الملائكة الغلاظ الشداد، الموكلين بتعذيب الكفار في النار).

وقد اختلف في واحد الزبانية:

فنقل العلامة القرطبي رحمه الله تعالى عن الكسائي واحدهم: زِبنيٌّ.

وقال الأخفش: زابن.

وقال أبو عبيدة: زِبنية ، وقيل: زَباني ، وقيل: هو اسم للجمع كالأبابيل.

ثُم قال القرطبي رحمه الله تعالى: وهو مأخوذ مِنَ الزَبنْ وهو: الدفع. ا هـ أي: الدفع بشدة وقوة.

وقول ابن عباس رضي الله عنهما المتقدم في معنىٰ: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ قال: يعني الملائكة الغلاظ الشداد ، يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ **أمَّا وقاية النفس** من النار فهي بفعل الطاعات، وترك المعاصي والمخالفات، **وأما وقاية الأهل** والمراد بهم هنا ما يشمل الزوجة والأولاد ، ووقايتهم من النار هي بحملهم على فعل الطاعات ، وترك المعاصي؛ بالنصح والتأديب ، فيأمرهم بما أمرهم الله تعالى ، وينهاهم عما نهى الله تعالى.

ومِنْ ذلك تعليمهم الأخلاق الفاضلة ، والآداب الكاملة.

روى ابن المنذر ، والحاكم وصححه ، عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال في هذه الآية: (علموا أنفسكم وأهليكم الخير وأدبوهم). ا هـ.

جاء في الحديث ، عن ابن عَمْرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مروا أولادكم بالصلاة وهم

أبناء سبع ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين ، وفرقُوا بينهم في المضاجع» الحديث[1] .

والمعنى: إذا بلغ أولادكم سبعاً فأمُروهم بأداء الصلاة ، ليعتادوها ، ويأنسوا بها ، فإذا بلغوا عشر سنين فاضربوهم على تركها .

ومعنى: «وَفرِّقوا بينهم في المضاجع» قال العلامة المناوي: أي: فرقوا بين أولادكم[2] في مضاجعهم التي ينامون فيها ، إذا بلغوا عشراً ، حذراً من غوائل الشهوة؛ وإنْ كنَّ أخواته . ا هـ .

وهذا الأمر في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مروا أولادكم» هذا الأمر مُوَجَّه لأولياء الأولاد ، فإذا لم يأمروا أولادهم بذلك كانوا مسؤولين عند الله تعالى ، ومحاسبين على ذلك .

جاء في الحديث ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كلكُم راع ، وكلُّكم مسؤول عن رعيته ، فالإمام راعٍ وهو مسؤول عن رعيته ، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها ، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول رعيته ، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته ، فكلكُم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته»[3] .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، وأبو داود ، والحاكم كما في (الجامع الصغير) ، رامزاً لصحته .

(٢) يعني: الذكور والإناث فلا يناموا مع أخواتهن في فراش واحد .

(٣) رواه الشيخان ، وأبو داود الترمذي ، والإمام أحمد كما في (الجامع الصغير) .

فعلى المسلم أن يقوم بمهمته الموكلة إليه ، ولا يُقَصِّر في ذلك ، وليعلم أَنَّ هناك سُؤالاً عنها.

وقوله تعالى: ﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ أي: تتوقد نار جهنم بالناس والحجارة ، كما تتوقد نار الدنيا بالحطب.

فقال بعضهم: المراد بالحجارة هنا هي الأصنام التي كانت تُعبدَ مِنْ دُون الله تعالى ، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: (هي حجارة كبريت) والحجارة تشمل الكل.

وبعد أنْ بيَّن الله تعالى شِدَّة نارها ، بَيَّنَ سبحانه وتعالى شِدة القائمين بتعذيب الكفار فيها ، وقوتهم فقال سبحانه وتعالى: ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾.

والمعنى: أَنَّ عليها ملائكة ، موكلون عليها ، وتعذيب أهلها ، غلاظ الأقوال، شداد الأفعال، غلاظ الخُلُق، شداد الخَلْق ، أقوياء على الأفعال الشديدة ، لا يعتريهم تعب ولا نصب ، ولا كَلَل ولا مَلل ، ونعوذ بالله من عذاب جهنم.

روى عبد الله ابن الإمام أحمد في (زوائد الزهد) ، عن أبي عمران الجوني قال: بلغنا أَنَّ خزنة النار تسعة عشر ، ما بين منكبي أحدهم مسيرة مائة خريف ـ أي: سنة ـ ليس في قلوبهم رحمة ، إنما خلقوا للتعذيب ، يَضرب المَلَكُ منهم الرجل مِنْ أَهْل النار الضربة

الواحدة ، فيتركه طِحناً ، من لدن قرنه إلى قدمه[1] ا هـ.

أي: ومع هذا كله فإنّه لا يموت فيها ، ولا يحيى ـ أي: حياة تنجيه من العذاب ـ كما جاء في الحديث ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أمّا أهل النار الذين هم أهلها ـ يعني: الكفار ـ فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ـ أي: وهم العصاة ـ فأماتتهم إمَاتة ـ أي: نَوعاً من الإماتة ـ حَتَّى إذا كانوا فحماً ـ أي: صاروا فحماً ـ أذن في الشفاعة ـ أي: بالشفاعة بهم ـ فجيء بهم ضبائر ضبائر[2] ، فبثوا على أنهار الجنة ـ أي: نهر الحياة على أبواب الجنة ـ ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم من الماء ، فينبتون نبات الحبَّة في حميل السَّيل» رواه مسلم.

قول الله تعالى:

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴾

﴿ كَلَّا ﴾ ردع لأبي جهل بعد ردع سابق ، وزجر له بعد زجر ، فهو خاسر خاسِيء ، سفيه وقح.

﴿ لَا تُطِعْهُ ﴾ أي: لا تطعه يا رسول الله يا محمد فيما ينهاك عنه ، من المداومة على الإكثار من عبادتك لربك ، وصَلِّ لله تعالى حيث شئت ، ولا تباله ولا يَهمَنَّك أمره ، فإن الله تعالى هو حافظك ،

---

(١) انظر (الدر المنثور) وغيره.

(٢) جماعات جماعات.

وناصرك ، وكافيك شرَّه وَشَرَّ كل ذي شر ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ .

فقد تكفل الله تعالى بحفظ رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكفايته أذاهم وشرهم ، كما تكفل بردِّهم على أعقابهم خاسئين؛ في جميع المواطن التي كانوا فيها يحاولون أَنْ يتعرضوا لإيذائه صلى الله عليه وآله وسلم .

فمنْ ذلك ما أخبر الله تعالى عنه في قوله سبحانه: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ .

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ أي: اجهر بدعوتك إلى الله تعالى ، وبَلِّغ ما أمرك الله تعالى ، معلناً ذلك ، ولا يهمنَّك أمر المشركين وكثرتهم ، والله تعالى هو يكفيك أمر المستهزئين ، الذين يريدون أن يصدوك عن تبليغ رسالة ربك ، فهو سبحانه يأخذهم بالعقوبات العاجلة ، ويكفيك شرهم .

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ قال: المستهزئون هم: الوليد بن المغيرة والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، والحارث بن عطل السهمي ، والعاص بن وائل .

فأتى جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) رواه الطبراني في (الأوسط) ، والبيهقي وأبو نعيم كلاهما في (الدلائل) ، وابن مَرْدُويه بسند حسن ، والضياء في (المختارة) كما في (الدر المنثور) وغيره .

وسلم ، فشكاهم إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، واستهزاءهم به .

فقال جبريل عليه السلام: أرني إيَّاهم ، فأراه الوليد فأومأ جبريل إلى أكحله .

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعت شيئاً» .

فقال جبريل: كفيتكه .

ثم أراه الأسود بن المطلب ، فأومأ جبريل إلى عينيه .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعت شيئاً» .

فقال جبريل عليه السلام: كفيتكه .

ثم أراه الأسود بن عبد يغوث ، فأومأ جبريل إلى رأسه .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعت شيئاً» .

فقال جبريل عليه السلام: كفيتكه .

ثم أراه الحارث ، فأومأ جبريل عليه السلام إلى بطنه .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعتَ شيئاً» .

فقال جبريل عليه السلام: كفيتكه .

ثم أراه العاص بن وائل ، فأومأ جبريل إلى أخمصه ـ عقب قدمه ـ .

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما صنعت شيئاً» .

فقال جبريل عليه السلام: كفيتكه .

فأما **الوليد بن المغيرة** فمرَّ برجل من خزاعة وهو يُريشُ نبلاً ، فأصاب أكحله ، فقطعها.

وأما **الأسود بن المطلب** فنزل تحت سمرة ـ شجرة ـ فجعل يقول: يا بنيَّ ألا تدفعون عني ، قدْ هلكت ، وطعنتُ بالشوك في عيني ، فجعلوا يقولون: ما نرى شيئاً ، فلم يزل كذلك حتى عميت عيناه.

وأما **الأسود بن عبد يغوث** فخرج في رأسه قُروح فمات منها.

وأما **الحارث** فأخذه الماء الأصفر في بطنه ، حتى خرج خرؤه من فيه ، فمات منه.

وأما **العاص بن وائل** فركب إلى الطائف ، فربض على شِبْرقة ، فَدخل في أخمص قدمه شوكة فقتلته.

فانظر أيها العاقل في حفظ الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، وكفايته شر أعدائه.

ومن ذلك ردُّه سبحانه وتعالى مَكْر أعدائه صلى الله عليه وآله وسلم ليلة هجرته ، وحفظ الله تعالى له:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ .

في هذه الآية الكريمة يُبين الله تعالى فضله على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، ودفاعه عنه ، وحفظه له من المشركين ، حين كان في مكة المكرمة ، وما عزم عليه المشركون ليلة هجرته صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة المنورة بأنواره صلى الله عليه وآله وسلم.

جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية ، قال: تشاورت قريش ليلة بمكة ـ أي: ليلة هجرته صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق.

يريدون النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال بعضهم: بل اقتلوه.

وقال بعضهم: بل أخرجوه ـ أي: من مكة المكرمة ـ.

قال: فأطلع الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك فبات علي بن أبي طالب رضي الله عنه على فراش النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعند ابن إسحق وغيره: فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونثر على رؤوسهم كلهم تراباً كان في يده ، وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فخرج صلى الله عليه وآله وسلم حتى لحق بالغار ـ أي: غار ثور ـ ومعه أبو بكر رضي الله عنه.

وبات المشركون تلك الليلة يحرسون علياً رضي الله عنه ، يحسبون أنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلما أصبحوا ثاروا إليه ، فلما رأوه علياً رضي الله عنه ردَّ الله مكرهم.

فقالوا: أين صاحبك؟

قال: لا أدري.

فاقتصُّوا ـ أي: تَتَبَّعُوا ـ أثره ـ أثر الخطوات ـ فلما بلغوا

الجبل اختلط عليهم ، فصعدوا في الجبل ، فرأوا على باب الغار نسيج العنكبوت.

فقالوا: لو دخل هنا لم يكن نسيج العنكبوت على بابه.

فمكث في الغار ثلاث ليال ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه[١].

وجاء في (مسند) البزار ، من حديث أبي مصعب المكي قال: أدركت زيد بن أرقم ، والمغيرة بن شعبة ، وأنس بن مالك رضي الله عنهم يَتَحدَّثون ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما كان ليلة بات في الغار ، أمر الله تعالى شجرة فنبتتْ في وجه الغار ، فسترت وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وأن الله تعالى أمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار[٢].

ونقل في (المواهب) عن المحدث العلامة الفقيه المالكي قاسم بن ثابت في (الدلائل) ، ـ أي: دلائل النبوّة ـ قال: وأرسل الله تعالى حمامتين وحشيتين فوقفتا على وجه الغار ، فعشَّشَتا على بابه ، وذلك مِمَّا صدَّ المشركين عن دخول الغار ، فردهم الله تعالى خاسئين خاسرين.

وفي دخوله صلى الله عليه وآله وسلم الغار حين خرج من مكة مُهاجراً يبين الله تعالى كفالته بالنصر والتأييد ، والوقاية والحفظ

---

(١) روى ذلك الإمام أحمد ، وعبد الرزاق ، وابن المنذر ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم وغيرهم ، كما في (الدر المنثور) اهـ ، ومكثه صلى الله عليه وآله وسلم في الغار ثلاث ليال هو المشهور الذي عليه الأكثر كما في (المواهب وشرحها).

(٢) كذا في (المواهب وشرحها).

لهذا الرسول الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فيقول سبحانه وتعالى معلناً ذلك :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ ﴾ أي : تنصروا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فإنَّ الله تعالى ناصره وحافظه ، وكافيه شر أعدائه .

﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ أي : كما نصره الله تعالى وحفظه ، عام هجرته إلى المدينة لَمَّا همَّ المشركون بقتله ، أو حبسه ، أو نفيه ، فخرج من بينهم مهاجراً إلى المدينة المنورة ، ومعه صاحبه ، وهو الصِّديق الصادق ، والصِّدّيق أبو بكر رضي الله عنه ، وتوجَّه إلى غار ثور ، وبقي ثلاثة أيام فيه ، ليرجع الطلب من المشركين الذين خرجوا في آثارهم ، ثم يتوجه ومعه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه إلى المدينة المنورة به صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي خلال المدة في الغار كان أبو بكر رضي الله عنه يعتريه الحزن والخوف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ أَن يناله أذىً من المشركين ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم يُسَكنه ويُبشره ، ويقول له: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

كما روى الشيخان ، والإمام أحمد واللفظ له ، عن أنس رضي الله عنه ، أن أبا بكر رضي الله عنه حدّثه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ونحن في الغار: لو أن أحدهم ـ أي: المشركين ـ نظر إلى قدميه لأبصرنا ، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما».

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: بالحفظ والتأييد ، والوقاية من شرور الأعداء ، ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي: الملائكة الكرام عليهم السلام.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾.

روى البيهقي في (الأسماء والصفات) ، وابن المنذر وغيرهما ، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ قال: هي: الشرك ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ قال: هي: لا إلّه إلّا الله.

وروى الشيخان ، وأصحاب السنن ، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال الرجل: يا رسول الله الرجلُ يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياءً ، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله تعالى».

وقد أشار صاحب البردة إلى قصّة الغار ، وما جرى في ذلك مِنَ المعجزات ، والوقايات الإلّهية التي حفظ الله تعالى بها حبيبه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال رحمه الله تعالى :

أقسمتُ بالقمر المنشقِّ إنَّ له
مِنْ قلبه نِسْبة مبرورة القَسَم

وما حوىٰ الغار مِنْ خير ومِنْ كرم
وكلُّ طرف من الكفار عَنْه عَمي

فالصِّدق[1] في الغار والصِّديق لم يرما[2]
وهم يقولون مافي الغار من أرِم[3]

ظَنوا الحمام وظنوا العنكبوت على
خَيْر البرية لم تنسج ولم تحم

وقاية الله أغنت عَن مضاعفة
مِنْ الدُّروع[4] وعن عالٍ من الأطُمِ[5]

ومِنْ ذلك وقاية الله تعالى لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طريق هجرته ، حين تعرض سراقة بن مالك بن جعشم ، لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصاحبه الصديق ، ليلة

---

(١) أي : النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصادق الأمين.
(٢) أي : لم يبرحا.
(٣) أي : من أحد نظراً منهم إلى حوم الحمام ونسيج العنكبوت.
(٤) أي : عن الدروع الكثيرة.
(٥) أي : الحصون التي يتحصن بها العالية المنيعة.

الهجرة ، يُريد منعهما أو ردّهما إلى قومهما ـ وكان مُشركاً ثم أسلم بَعْدُ[1] .

قال في (المواهب وشرحه): وجاء في رواية للبخاري عن أبي بكر رضي الله عنه قال: تبعنا ـ أي: لحقنا ـ سراقة ونحن في جلد من الأرض ، فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قدْ لحقنا.

قال: «لا تحزن إن الله معنا».

فلما دنا منا ، وكان بيننا وبينه رمحان أو ثلاثة ، قلت: هذا الطلب قد لحقنا ـ وبكيتُ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما يبكيك»؟

قلت: أمَا والله ما على نفسي أبكي ، ولكن عليك ـ فبكىٰ أبو بكر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله أُتينا.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلاَّ» ودعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدعوات.

وفي رواية الإسماعيلي وغيره ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اكفناه بما شئتَ».

وفي حديث أنس رضي الله عنه عند البخاري ، فقال صلى الله

---

(١) قال في (شرح المواهب): أسلم سراقة عنده صلى الله عليه وآله وسلم بالجعرانة ، منصرفه صلى الله عليه وآله وسلم من حنين والطائف ، وروى عنه ابن عباس وجابر ، وابن أخيه عبد الرحمن بن مالك بن جعشم ، وابن المسيب وطاووس ، وأخرج له البخاري ، والأربعة ، والإمام أحمد. ا هـ.

عليه وآله وسلم: «اللهم اصرعه» فصرعه فرسه فساخت ـ أي: غاصت قوائم فرسه في الأرض حتى بلغت الركبتين ـ كما في حديث عائشة رضي الله عنها.

وفي حديث أسماء رضي الله عنها عند الطبراني، فوقعتْ ـ الفرس ـ لمنخريها.

وعند البزار: فارتطمتْ فرسه به إلى بطنها.

وعند الإسماعيلي: فساخت في الأرض إلى بطنها.

وطلب سراقة الأمان، فقال: أعلمُ أن قد دعوتما عليَّ، فادعوا لي.

وعند الإسماعيلي فقال: قد علمتُ يا محمد أنَّ هذا عملك ـ أي: دعاؤك ـ فادعُ الله أن ينجيني مما أنا فيه، ولكما عليَّ أن أردَّ الناس عنكما.

وفي رواية: ولا أضركما وأنا لكما نافع غير ضار.

فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1] أي: فأطلقته الأرض.

قال سراقة: فركبت فرسي، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت أَنْ سَيَظْهر أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وجاء في رواية للبخاري، عن أنس رضي الله عنه قال: فالتفت أبو بكر رضي الله عنه فإذا هو بفارس قد لحقهم، فقال: يا رسول الله هذا فارس قد لحق بنا، فالتفت نبيُّ الله صلى الله عليه

---

(١) انظر جميع ذلك في (المواهب وشرحها).

وآله وسلم فقال: «اللهم اصرعه» فصرعه الفرس ، ثم قامت ـ الفرس ـ تحمحم ـ والحمحمة: صوت الفرس ـ.

فقال سراقة: يا نبي الله مُرني بما شئتَ.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «فقف مكانك ، لا تتركنَّ أحداً يلحق بنا».

قال أنس رضي الله عنه: فكان أول النهار جاهداً على نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان آخر النهار مَسْلَحةً له ـ أي: حارساً له بسلاحه.

قال في (شرح المواهب): وذكر ابن سعد أنه لما رجع سراقة قال لقريش: قد عرفتم نَظري بالطريق وبالأَثَر ، وقد استبرأتُ لكم فلم أَر شيئاً؛ فَرجعوا. اهـ.

فوفَّىٰ سراقة بعهده أن لا يترك أحداً من المشركين يلحق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم قال في (شرح المواهب): وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال لسراقة: «كيف بك إذا لبست سِواري كسرى».

قال: وذكرِ ابن المنير أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال له ذلك يوم لحقهما في الهجرة ، فعجب ـ سراقة ـ من ذلك ، فلما أُتِيَ بهما عمر رضي الله عنه ، وهو خليفة ، فأتي بسواري كسرى وبتاجه وبمنطقته ، فدعا عمر رضي الله عنه سراقة فألبسه السِّوارين ، وقال: ارفع يديك وقل: الله أكبر ، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز ، وألبسهما سراقة بن مالك ، أعرابياً مِنْ بني

مدلج ، ورفع عمر رضي الله عنه صوته ، ثمّ قسم ذلك بين المسلمين.

فانظر أيها العاقل في حفظ الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم ، ووقايته له من شرور أعدائه الألداء ، وانظر في تلك المعجزات التي أجراها الله تعالى على يده صلى الله عليه وآله وسلم ، وانظر كيف رَدَّ الله تعالى عنه مكر أعدائه الذين تعاونوا ، وتكاثروا ، وبذلوا جهودهم في منعه من الهجرة ، وحاولوا قتله ، وقد حفظه الله تعالى ، ووقاه صلى الله عليه وآله وسلم شرهم ، وردهم على أعقابهم خاسئين خاسرين.



عصمة الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم عن كل ما يمنعه عن تبليغ الرسالة وتأييده سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وَرَدِّ مكـرِ أعدائـه عليهم

قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ أي: بلّغ أنت يا رسول الله رسالتي، وأنا حافظك، وناصرك، ومؤيدك، فلا تخف ولا تحزن، فلن يَصِل إليك أحد من أعدائك بسوء أو أذى، بل الله تعالى هُوَ يردُّهم على أعقابهم خاسئين.

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم قبل نزول هذه الآية يُحرس ليلاً.

روى الترمذي وغيره، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُحرس ليلاً، حتى نزلت هذه الآية ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ قالت: فأخرج

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأسه من القبة وقال: «يا أيها الناس: انصرفوا، فقد عصمني الله عز وجل».

وكان ذلك على أثر هجرته صلى الله عليه وآله وسلم، وكان ذلك في سنة اثنين من الهجرة[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ قال الإمام البخاري رضي الله عنه: قال الزهري: من الله تعالى الرسالة، وعلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم البلاغ، وعلينا التسليم ـ أي: القبول والعمل ـ.

وقد شهدت له صلى الله عليه وآله وسلم أمته بإبلاغ الرسالة، وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، وذلك في خطبته يوم حجة الوداع:

روى الإمام مسلم، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال في خطبته يوم حجة الوداع:

«أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون»؟

قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت، وأدَّيت، ونَصحت.

فجعل يرفع أصبعه إلى السماء، وينكّسها إليهم ويقول: «اللهم هَلْ بلّغتُ» أي: يُشهد الله عز وجل على تبليغه.

وفي رواية الإمام أحمد: ثم رفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصبعه إلى السماء فقال: «اللهم هَلْ بلغت» قال ذلك مراراً.

---

(١) تفسير الحافظ ابن كثير وغيره.

وقاية الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ سُمٍّ الشاة التي أهداها إليه اليهود

روى الإمام البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (لما فُتحتْ خيبر أُهْدِيَتْ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شاة فيها سُمّ ـ أهدتها إليه اليهودية ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اجمعوا لي مَنْ كان هَهنا مِنَ اليهود» فَجُمعوا له.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيَّ عنه»؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أبوكم»؟

قالوا: فلان.

فقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «كذبتم بل أبوكم فلان».

قالوا: صدقتَ وبررتَ.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل أنتم صادقيَّ عن شيء إنْ سألتكم عنه»؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبناك عرفته، كما عَرَفْتَه في أبينا.

فقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أهل النار»؟

قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً».

ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ إنْ سَألتكم عنه»؟

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «هل جعلتم في هذه الشاة سمّاً»؟

قالوا: نعم.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما حملكم على هذا»؟

قالوا: أردنا إن كنتَ كاذباً أن نستريح منك، وإن كنت صادقاً لَمْ يَضرّك) كذا في (جامع الأصول).

وقال في معنى: اخسؤوا: يقال: خسأتَ الكلب إذا طردتَه وأبعدته. اهـ.

وفي رواية لأبي داود، من حديث جابر رضي الله عنه: أنَّ يهودية من أهل خيبر سمَّت شاة مَصْلية ـ أي: مشوية ـ، ثم أهدتها لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: هي من جملة المتعاونين في وضع السم في الشاة ـ وأرسل إليها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدعاها ـ أي: مع جملة من اليهود الذين تقدم ذكرهم ـ.

فقال لها: «سممت هذه الشاة»؟

قالت اليهودية: مَنْ أخبرك؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أخبرتني هذه الذراع التي بيدي».

فقالت اليهودية: نعم.

قال: «وما أردت إلى ذلك».

قالت: قلت: إن كان نبياً لم يضره، وإن لم يكن نبياً استرحنا منه. الحديث كما في (جامع الأصول).

عصمة الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من أعدائه المشركين ورد كيدهم ومِنْ ذلك ما وقع في غزوة ذات الرِّقاع

روى الشيخان، عن جابر رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذات الرقاع ـ وفي رواية لهما: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم غَزَاةً قِبل نَجْد ـ فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في القائلة ـ أي: وقت القيلولة ـ في وادٍ كثير العِضاه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحت شجرة، فعلَّق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرَّق الناس ـ أي: الصحابة في الوادي يستظلُّون بالشجر ـ.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ رجلاً أتاني وأنا نائم، فأَخذ السيف، فاستيقظت وهو قائم على رأسي، والسيف صلتاً في يديه.

فقال: مَنْ يمنعك مني؟

قلت: الله، فشام السيفَ، فهاهوَ ذا جالس».

ثُم لم يَعْرِض له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مَلِكَ

قومه ، فانصرف حين عفا عنه فقال ـ الرجل ـ: لا أكون في قوم هم حرب لك .

قال في (المواهب وشرحها): وعند أبي عوانة في حديث جابر رضي الله عنه المتقدم ، فقال: مَنْ يمنعك مني .

فقال له عليه الصلاة والسلام: «الله» فسقط السيف مِنْ يده ، فأخذه صلى الله عليه وآله وسلم فقال ـ للرجل ـ: «من يمنعك مني» .

فقال الرجل: كن خير آخذ ـ استعمل الحِلم ـ.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله» .

فقال الأعرابي: أعاهدك على أنْ لا أقاتلك ، ولا أكونَ مع قوم يقاتلونك .

فخَلَّى سبيله ، فجاء إلى قومه فقال لهم: جئتكم مِنْ عند خير الناس صلى الله عليه وآله وسلم .

وفي (المواهب وشرحها) نقلاً عن الواقدي في قصة الرجل الأعرابي المتقدم ذكره ـ أنه أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلق كثير ، وفي رواية ابن إسحاق: ثم أسلم بَعْدُ[1] . ا هـ.

---

(١) كذا في (جامع الأصول) ، قال: والعضاه: كل شجر له شوك ، كالسَلم والأراك ، وسيف صَلْت إذا كان خارجاً مِنْ غِمده ، وشِمتُ السيف: إذا أغمدته ، وإذا سللته فهو من الأضداد. ا هـ والمراد فشام السيف جعله في غمده.

ومن ذلك عصمة الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم من مكر المنافقين وهو راجع من تبوك ليلاً وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾.

روى البيهقي في (الدلائل) عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أقودها، وعمّار يسوقها، حتى إذا كنا بالعقبة[١]، فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها ـ أي: في طريق العقبة ـ فأخبرته صلى الله عليه وآله وسلم، فصرخ بهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فولّوا مدبرين.

فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل عرفتم القوم»؟

قلنا: لا يا رسول الله كانوا متلثّمين.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة.

هل تدرون ما أرادوا»؟

قلنا: لا يا رسول الله.

قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في العقبة فيلقوه فيها».

وفي رواية للبيهقي: فَأُخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خبرهم ـ أي: فنزل عليه جبريل عليه السلام فأخبره خبرهم ـ ثم قال

---

(١) وكان ذلك ليلاً، وهو صلى الله عليه وآله وسلم راجع من تبوك كما في بقية الروايات.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم ارمهم بالدُّبَيْلة».

قلنا: يا رسول الله وما الدُّبَيْلة؟

قال: «شهاب من نار يوضع على نياط ـ عروق ـ قلب أحدهم فيهلك» أي: يموت.

وفي رواية للبيهقي: عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «هل عرفتَ مِن القوم أحداً»؟ فقال حذيفة رضي الله عنه: لا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله تعالى قد أخبرني بأسمائهم، وأسماء آبائهم، وسأخبرك بهم إن شاء الله عند وجه الصبح».

فلما أصبح سمَّاهم لحذيفة رضي الله عنه.

قال حذيفة رضي الله عنه: فهم اثنا عشر رجلاً حاربوا الله ورسوله، وأرادوا قتله صلى الله عليه وآله وسلم، فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك.

قال حذيفة رضي الله عنه: وذلك قول الله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ الآية[1].

قال في (الاستيعاب): وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَسأل حذيفة عن المنافقين، وهو ـ أي: حذيفة ـ معروف في

---

(١) انظر (الدر المنثور) وغيره، وجاء في بعض روايات الطبراني وغيره أن المنافقين الذين سماهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحذيفة كانوا: أربعة عشر رجلاً، وفي رواية كانوا: خمسة عشر. اهـ.

الصحابة بصاحب سرِّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان عمر رضي الله عنه ـ أي: حين كان خليفة ـ ينظر إلى حذيفة عند موت مَنْ مات منهم ـ أي: من المنافقين الذين سماهم له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ فإنْ لَم يَشهد جنازته حذيفة لم يَشهدها عمر رضي الله عنه. ا هـ.

ومن ذلك عصمة الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ شَيبة بن عثمان قبل إسلامه:

روى البيهقي وأبو نعيم ، عن عكرمة قال: قال شيبة بن عثمان: لما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حُنيناً ، فذكرتُ أبي وعمي قتلهما عليٌّ وحمزة ، فقلت: اليوم أُدرك ثأري من محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فجئته مِنْ خلفه ، فدنوتُ منه ، حتى لم يبق إلا أنْ أسوره بالسيف ، إذ وقع شُواظ من نار بيني وبينه ، كأنَّه البرق ، فنكصتُ ـ أي: رجعتُ ـ القهقرى ـ أي: إلى الخلْف من شدة الخوف ـ.

فالتفتَ إليَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «تعال يا شيبة ، أُدنُ مني» فوضع يَدَه على صدري ، واستخرج الله الشيطان من قلبي فرفعتُ إليه بصري وهو أحبُّ إليَّ من سمعي وبصري صلى الله عليه وآله وسلم[1].

ومن ذلك عصمته صلى الله عليه وآله وسلم من النضر بن الحارث:

روى أبو نعيم ، عن عروة بن الزبير رضي الله عنه ، أنَّ النضر بن

---

(١) كذا في سيرة خير العباد صلى الله عليه وآله وسلم.

الحارث كان يُؤذي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويتعرَّض له ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً يريد حاجته في نصف النهار في حر شديد ، فبلغ أسفل من ثَـنِـيَّـة الحَجون ، فرآه النضر بن الحارث ، فقال: لا أجده أبداً أخلى منه الساعة ، فأغتاله ـ أي: يقتله ـ.

فدنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم انصرف راجعاً مرعوباً إلى منزله ، فلقي أبا جهل ، فقال له: أبو جهل مِنْ أين الآن جئت.

فقال النضر: اتبعت محمداً رجاء أن أغتاله ، وهو وحده ، فإذا أُسُود تضرب بأنيابها على رأسي ، فاتحة أفواهها؛ فزعرتُ ـ أي: خفت منها ـ وولَّيت راجعاً.

فقال أبو جهل: هذا بعض سحره.

ومن وقاية الله تعالى لرسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم شر أعدائه ، ما جاء في قصة امرأة أبي لهب وردِّها خاسئة:

جاء في الحديث ، عن أسماء بنت أبي بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضي الله عنهما قالت: لما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أقبلت العوراء أم جميل امرأة أبي لهب ولها وَلْوَلة ، وفي يدها فِهْر ـ أي: حَجَر ـ وهي تقول:

مذمماً أبينا ، ودينه قلينا ، وأمره عصينا

ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس ، وأبو بكر رضي الله عنه إلى جنبه.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: لقد أقبلت هذه ـ أي: امرأة

أبي لهب ـ وأنا أخاف أن تراك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها لن تراني» وقرأ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرآناً اعتصم به منها، كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾.

فجاءت حتى قامت على أبي بكر رضي الله عنه، فلم تر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقالت: يا أبا بكر بلغني أن صاحبك هَجاني؟

فقال أبو بكر رضي الله عنه: لا وَربِّ هذا البيت ما هجاك؟

فانصرفت وهي تقول: قد علمتْ قريش أني بنت سيدها[١].

وفي رواية للبيهقي في (الدلائل) فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر رضي الله عنه: «قل لها: هَل تَرَيْنَ عندي أحداً، فإنها لن تراني، جعل الله تعالى بيني وبينها حجاباً».

فقال لها أبو بكر رضي الله عنه، فقالت له: أتهزأ بي، والله ما أرى عندك أحداً.

وسبب نزول: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ السورة، هو ما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان وغيرها[٢]، عن ابن عباس رضي

---

(١) رواه الحافظ أبو يعلىٰ، وابن أبي حاتم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في (الدلائل)، كذا في (الدر المنثور).

(٢) كما في (تيسير الوصول) وغيره.

الله عنهما أنه قال: لمَّا نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على الصفا، فجعل ينادي: «يا بني فهر يا بني عَديٍّ» لبطون قريش، حتى اجتمعوا.

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً ـ أي: جيشاً عظيماً ذا عدَّة وعدد ـ بالوادي ـ أي: خلفكم وقريباً منكم ـ تُريد أن تُغير عليكم ـ أي: على حين غفلة منكم ـ أَكُنْتُم مُصدِّقيَّ» أي: هل تُصَدِّقونني في هذا الخبر العظيم؟

قالوا ـ أي: كلهم ـ: نعم نصدقك ما جرَّبنا عليك إلا صِدْقا ـ أي: جربناك في كل الأمور فما عرفنا منك إلا الصدق، ولم تكذب قطُّ ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإني نذير لكم بَيْن يديْ عذاب شديد» والمعنى: إني: أُنذركم إنْ بقيتم على كفركم وشرككم، أُنذركم عذاب الله الشديد، فآمنوا بالله وحده لا شريك له، وأسلموا له، واشهدوا أنَّ محمداً رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تكونوا آمنين مكرمين في الدنيا والآخرة.

فقال أبو لهب: تباً لك يا محمد ألهذا جمعتنا؟

فنزلتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ أي: نزلت السورة كلها.

ومعنى التباب: الخسران والهلاك.

قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة، ودليل واضح على حَقِّيَّة نبوته صلى الله عليه وآله وسلم، فإنَّه منذ نزل قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ فأخبر عنهما سبحانه بالشقاء وعدم

الإيمان ، ولم يقيض لهما أنْ يؤمنا ، ولا واحد منهما لا باطناً ولا ظاهراً ، ولا مُسِرّاً ، ولا معلناً ، فكان هذا من أقوىٰ الأدلة على حقية نبوته الجلية صلى الله عليه وآله وسلم[1] .

كما أنَّ قولهم ما جرَّبنا عليك يا محمد إلا صدقاً ـ كما تقدَّم ـ هذا يدل على أنَّ أعداءه من المشركين كانوا مجمعين على صدقه صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمانته ، وعفته ، ونزاهته ، ما عثروا له على كذبة قطُّ لدى التجربة ، ولذلك كانوا يسمونه الصادق الأمين صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ قبل النبوة والرسالة .

فلما نبأه الله تعالى وأرسله ، وأنزل القرآن الكريم ، وقَرأَ عليهم آياته ، وعرفوا من قلوبهم أنه صادق ، وأنَّ هذا الكلام وهو القرآن هو كلام الله تعالى؛ ليس من كلام البشر لإعجازه ، فهناك من عرف واعترف من المشركين ، وآمن بأن سيدنا محمداً رسول الله ، وأَنَّ هذا الكتاب الذي جاء به هو من عند الله تعالى ، فدخل في الإسلام ، وأعلن بذلك ، وأقرَّ بشهادة أن لا إلٓه إلا الله محمد رسول الله ، وهناك من عرف ولكن لَمْ يعترف ، ولم يُقرّ ، بل راح يَجحد وينكر رسالته صلى الله عليه وآله وسلم ، ويزعم أنه شاعر أو ساحر . . إلخ مِنْ أقوالهم المتناقضة ، وسبب إنكارهم وجحودهم هو الكِبْرُ والعناد ، والعصبية الجاهلية العمياء ، في حين أنهم علموا أنه حقاً: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم يُقِرّوا ، ولم يعترفوا ، بل جحدوا وأنكروا ما عرفوه ، كما أخبر الله تعالى في قوله: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي :

---

(١) انظر تفسير الحافظ ابن كثير وغيره.

ينكرون ما جئتهم به ، ويجحدون بعد أن عرفوا أَنَّ جميع ما جئتهم به فهو حق .

كما أخبر الله تعالى عن موقف فرعون وقومه مع موسى عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ أي: تكبراً وتعاظماً ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

ومِنَ المعلوم أَنَّ الجُحود هو إنكار الحق بعد العلم بأنه حق.

ويبين لك ذلك ما رواه بعض أصحاب السير ، أن أبا جهل ، سئل فقيل له: هل كنتم تتَّهمون محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالكذب قبل أن يقول مقالته ـ أي: أنَّه رسول الله ، وجاء بكتاب من عند الله تعالى .

فقال أبو جهل: لقد كان محمد وهو شابٌّ يُدعىٰ الصادق الأمين ـ أي: كلنا ندْعوه الصادق الأمين ـ ما جرَّبنا عليه إلاّ صدقاً ، فلما وخطه الشيب ـ أي: بلغ أربعين سنة ، وقارب المشيب ـ لم يكن ليكذب على الله تعالى .

فقيل لأبي جهل: إذاً لِمَ لا تتبعونه ـ أي: وقد علمتم أنه الصادق الأمين ، فلِمَ لَمْ تؤمنوا به وتتبعوه؟

فقال أبو جهل: تنازعنا نحن وبنو هاشم الشرفَ ـ أي: التعالي في المفاخر والأنساب ، والأحساب والمكارم ـ فأطعم بنو هاشم ـ أي: أطعموا المساكين والفقراء ـ فأطعمنا ، وسَقَوا فسقينا ، وأجاروا ـ أي: أجاروا من استجار بهم ـ فأجرنا ، حتى كنا كفرسي رِهان ـ أي: سواء في المفاخر ـ ، ثم افتخر علينا بنو هاشم فقالوا:

منا نبيٌّ ـأي: نبي يوحي الله تعالى إليه ، وهو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ.

قال أبو جهل: فَمِنْ أَيْن ندرك هذا؟ أي: نأتي بنبي ـأي: فراحوا ينكرون رسالته ونبوته صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى ما تفتخر عليهم بنو هاشم ـ.

فانظر أيها العاقل إلىٰ هذا الجهل العميق ، المظلم القاتم ، وحُقَّ أن يقال لأبي جهل: أبو جهل.

روى الحاكم وصححه ، والبيهقي في (الدلائل) من طريق عكرمة ، عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن ، فكأنه رَقَّ له ـ أي: لان قلبه وانشرح للقرآن ـ.

فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتىٰ الوليد بن المغيرة فقال له أبو جهل: ياعم إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوه لك ، فإنك أتيتَ محمداً لتعرض لما قِبله ـ أي: لتلمس منه عطاء المال ـ.

فقال الوليد: قد علمتْ قريش أني من أكثرهم مالاً.

قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يَبْلغ قومك أنك منكر ، وأنك كاره له ـ أي: لما سمعه من القرآن الكريم ، الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ .

قال الوليد: فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ، ولا بقصيده مني ، والله ما يُشبه الذي يقول ـ أي: القرآن الذي سمعه ـ ما يشبه من هذا ـ أي: لا يُشبه الشعر ولا الرجز ـ ووالله إنَّ

لقوله الذي يقول ـ أي: القرآن ـ لحلاوة ، وإنّ عليه لَطَلاوة ، وإنّه لمثمر أعلاه ، ومغدق أسفله ، وإنّه ليعلو ـ أي: ليعلوا فوق كل كلام ـ ولا يُعلىٰ عليه ، وإنه ليحطم ما تحته.

فقال أبو جهل: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ـ أي: تطعن وتنكر ما سمعته من القرآن ـ.

فقال الوليد: فدعني حتى أفكِّر ـ ففكّر ، فلما فكَّر قال: هذا سحر يؤثر ، يأثره ـ أي: يأخذه ـ عن غيره.

فنزلت فيه الآيات: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ أي: عرف أَنَّ هذا القرآن ليس من كلام البشر؛ بل هو كلام ربِّ العالمين؛ ولكنه جحد ذلك وأنكر عناداً وكبراً.

قال الله تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني: أسفل الجحيم ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴾ أي: لا يموت فيها ولا يحيى ﴿ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: تُلوِّح الجلد فتحرقه ويتغيَّر لونه حتى يصير أسود من الليل المظلم. ا هـ.

فلما سمع الوليد بن المغيرة القرآن الكريم مِنْ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رَقَّ له ، وعرف أنه حقاً كلام الله تعالى ، وأنَّه أنزله الله تعالى على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعرف أنه الحق ، وأنّ هذا القرآن ليعلو ولا يُعلى عليه؛ ثم بعد ذلك جحد وأنكر وأعرض ، واستكبر عِناداً وجحوداً.

وروى ابن إسحق وغيره ، عن مُحمد بن كعب القرظي قال:

حُدّثتُ أَنَّ عتبة بن ربيعة قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش أَلاَ أقوم إلى محمد فأكلمه ، وأعرض عليه أموراً لعله أن يقبل بعضها ، فنعطيه أيَّها شاء ، ويكفَّ عنا ، ـ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ، ورأى كفار قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون ـ.

فقالوا: يا أبا الوليد قم إليه فكلِّمه.

فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا ابن أخي إنك مِنَّا حيثُ علمتَ، من البسطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ به أحلامهم، وعِبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ به مَنْ مضى مِن آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضاً.

قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قل يا أبا الوليد».

فقال: يا ابن أخي إن كنتَ تُريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً: جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً: سوَّدناك علينا ـ أي: جعلناك سيداً علينا ـ حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلكاً: ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيّاً تراه لا تستطيع رَدَّه عن نفسك: طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه.

حتى إذا فرغ عتبة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يستمع منه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أفرغتَ يا أبا الوليد»؟

قال: نعم.

قال: «فاستمع مني».

قال عتبة: أفعل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقرأ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيها ، وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أَنْصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع ، حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى السجدة ، فسجد ، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا الوليد قد سمعت ما سمعتَ ، فأنت وذاك».

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد.

قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة.

يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها لي ، خلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزِلوه ، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي جاء به نبأ ـ أي:

نبأ عظيم ـ ، فإن تُصبه العرب فَقَد كفيتموه بغيركم ، وإنْ يَظهر علىٰ العرب فملكه ملككم وعزُّه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم . ا هـ.

وفي بعض الروايات قال لهم عتبة: فأجابني ـ أي: محمد صلى الله عليه وآله وسلم ـ بشيء والله ما هو بشعر، ولا كهانة، ولا سحر، وقرأ عليَّ سورة إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فناشدته بالرحم أَنْ يكفَّ ، وقد علمتم أَنَّ محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيتُ أن ينزل بكم العذاب. ا هـ .

وقصة عتبة بن ربيعة ، وإرسال قومه له حتى يُكلِّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدّم ، رواها ابن أبي شيبة ، وعَبْدُ بن حميد ، وأبو يعلى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي في (الدلائل)، وابن إسحاق ، وابن عساكر ، مع اختلاف بعض الألفاظ ، كذا في (الدر المنثور) ، وتفسير الحافظ ابن كثير وغيرهما.

ومما تقدم يعلم العاقل موقف الجبابرة الكفرة ، والعتاة الفجرة ، ويَعلم كِبْرهم وشدة عنادهم وعِدائهم لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وجحودهم وإنكارهم لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، بعدما تبيَّن لهم أنه الحق ، وأنه رسول الله حقاً صلى الله عليه وآله وسلم ، وأَنَّ الكتاب الذي جاء به صلى الله عليه وآله وسلم هو كلام الله تعالى المعجز ، الذي يَعلو ولا يُعلى عليه ، ومع ذلك فإنَّ الكفار عاندوا ، وجحدوا ، وأنكروا ، ومِنَ المعلوم أَنّ العنيد هو كالحديد ، لا تلينه إلا النار.

قال الله تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا ﴾ أي: الكفار يوم القيامة ﴿ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾.

قول الله تعالى: ﴿ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ﴾

والمعنى: واظب على سجودك لله تعالى، وصلاتك له، وداوم على عبادتك لربك، حيث شئتَ، ولا يهمك كيد أعدائك، وتعرّضهم لك بالممانعة والأذىٰ، فهو سبحانه وتعالى يردهم عنك خاسئين، وهو سبحانه حافظك، وكافيك، وعاصمك، ومؤيِّدُك، فَدُمْ على عبادتك، وصلاتك لربك، والسجود له، وتَقَرَّبْ بذلك إلى ربك، فإنّ في العبادة لله تعالى، والصلاة له تقرباً إليه سبحانه وتعالى، وإنَّ تقرب العبد من حضرة الربِّ جلَّ وعلا هو المحبوب، والمطلوب، والمقصود والمرغوب.

قال الله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾ الآية.

وقال الله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فبذلوا جهدهم في عباداته سبحانه، وطاعته، والصلاة له، والسجود له؛

ابتغاء التقرب إليه سبحانه وتعالى ، فقربهم سبحانه وتعالى ، وجعلهم مقرَّبين.

والقرب هو على مراتب متعددة متفاوتة، بعضها أفضل من بعض:

فهناك قرب الأنبياء والمرسلين: قال سبحانه وتعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ ـ أي: وهو من النبيين والمرسلين المقرَّبين؛ بقرب النبوة والرسالة ـ.

وهناك قرب الملائكة المقربين: قال الله تعالى: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ الآية.

وهناك قرب أولياء الله تعالى الصالحين: قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ ، وقال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ .

وقال الله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ .

وقد فصلتُ الكلام على تفسير ذلك في كتاب (التقرب إلى الله تعالى) فارجع إليه.

وإنَّ أَقرب المُقرَّبين ، وإمام المتقرِّبين من الأنبياء والمرسلين ، هو سيدنا محمد رسول الله صلوات الله تعالى عليه وعليهم

أجمعين ، صاحب مقام الوسيلة التي هي أفضل المنازل وأعلاها ، وأرفع المراتب وأسماها ، وجميع المنازل والمراتب هي دونها ، كما أنه صلى الله عليه وآله وسلم خصّه الله تعالى بمقام الشفاعة العظمى العامة ، التي لا يُمكن أن يتقدم إليها غيره.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم صاحب المقام المحمود ، الذي وَعَده الله تعالى إياه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ .

روى الترمذي وغيره ، عن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا كان يوم القيامة كنت أنا إمام النبيين ، وخطيبهم ، وصاحب شفاعتهم؛ غير فخر».

وروى الإمام البخاري ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الناس يصيرون يوم القيامة جُثًى ـ أي: جماعات ـ كل أمة تتبع نبيها ، يقولون: يا فلان اشفع لنا، حتى تنتهي الشفاعة إليَّ ، فذلك يوم يبعثه الله المقام المحمود»[1].

فالمقام المحمود هو: المقام الذي يقوم فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم القيامة لأجل أَنْ يشفع في جميع أهل الموقف ، ليريحهم من أهوال الموقف، وطُوله، وشدائده ، وكرباته ، ولذلك يحمده صلى الله عليه وآله وسلم الخلائق كلهم ، وهذه هي الشفاعة

(١) وقد جاء هذا الحديث في (صحيح) البخاري مرفوعاً وموقوفاً ، كما بيَّن ذلك الحافظ ابن كثير ، وفي (جامع الأصول) وقال: جثى: جمع جثوة وهي الجماعة. ا هـ قلت: وأما الجثيُّ: فهو جمع جاث.

العامَّة ، وقد خَص الله تعالى بها سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، لا يتقدم إليها أحد غيره صلى الله عليه وآله وسلم[1] .

وأما شفاعته صلى الله عليه وآله وسلم الخاصة بالمؤمنين فهي على مراتب متعددة ، كما بَيَّنْتُ ذلك في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها).

ويرحم الله تعالى القائل:

تشفَّــع يــا رســول الله فينــا ... فما نرجو الشفاعة من سواكا

أغــث يــا خيــر الله قــومــاً ... ضعــافــاً ظلهــم أبــداً لِــواكــا

وأســرع فــي إجــابتنــا فــإنــا ... نرىٰ المولىٰ يسارع في رضاكا

صلى الله عليه وآله وسلم تسليما

قــول الله تــعــالــى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾

في هذه الآية الكريمة دليل على فضل السجود لله تعالى ، وعظيم أثر السجود في التقرب إلى الله تعالى.

روى الإمام مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقربُ ما يكون العبد من ربه عز وجلَّ وهو ساجد ، فأكثروا الدعاء».

وعن معدان بن أبي طلحة رضي الله عنه قال: لقيتُ ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: عتيقه ـ فقلت: أخبرني

---

(١) وقد تكلمت مفصلاً مع الأدلة الواردة على شفاعته العامة ، وأنواع شفاعاته الخاصة صلى الله عليه وآله وسلم في كتابي (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع إليه.

بعمل أعمله يُدخلني الله تعالى به الجنة ـ أو قال: قلت: أخبرني بأحبِّ الأعمال إلى الله تعالى ـ.

فسكت، ثم سألته فسكتَ، ثم سألته الثالثة فقال: سألتُ عن ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «عليك بكثرة السجود، فإنَّك لا تسجد لله تعالى سجدة: إلاّ رفعك الله تعالى بها درجة، وحَطَّ عنك بها خطيئة» رواه مسلم وأصحاب السنن.

وروى ابنُ ماجه بإسناد صحيح، عن عُبادة بن الصَّامت رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «ما من عبد يسجد لله تعالى سجدة: إلاَّ كتب الله له بها حسنة، ومحا عنه بها سيئة، ورفع له بها درجة، فاسْتكثروا من السجود».

فبكثرة السجود لله تعالى: تُرفع درجات العبد، فيزداد قرباً فوق قرب.

جاء في الحديث، عن أبي فاطمة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل أستقيم عليه وأعمله.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله تعالى سجدة: إلا رفعك الله بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة».

قال في (الترغيب): رواه ابن ماجه بإسناد جيد، ورواه أحمد مختصراً ولفظه قال: قال لي نبيُّ الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا أبا فاطمة إنَّ أردتَ أَنْ تلقاني فأكثر السُّجود».

وعن ربيعة بن كعب رضي الله عنه قال: كنت أخدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهاري، فإذا كان الليل آويتُ إلى باب بيت

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فَأَبيت عنده ، فلا أَزال أسمعه يقول: «سبحان الله ، سبحان الله ، سبحان ربي» حتى أملّ ، أو تغلبني عيني فأنام.

فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوماً: «يا ربيعة سلني فأعطيك».

فقلت: أنظرني حتى أنظر ـ أي: أفكر ـ وتذكرت أَنَّ الدنيا فانية منقطعة ، فقلت: يا رسول الله أسألك أن تدعو الله أن ينجيني من النار ، وأن يدخلني الجنة.

قال: فسكتَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «مَنْ أَمرك بهذا» ؟.

قلت: ما أمرني به أحد، ولكني علمتُ أنَّ الدنيا منقطعة فانية ، وأَنْتَ مِنَ الله بالمكان الذي أنْتَ منه ، فأحببتُ أن تدعو الله لي.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «فإني فاعل ذلك فأعِنِّيْ على نفسك بكثرة السجود».

قال في (الترغيب): رواه الطبراني في (الكبير) ورواه مسلم مختصراً ، ولفظ مسلم:

قال ربيعة: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ أي: عند باب بيته ـ فآتيه بوضُوئه وحاجته.

فقال لي صلى الله عليه وآله وسلم: «سَلْني».

فقلتُ: أسألكَ مرافقتك في الجنة.

فقال: «أَوْ غير ذلك».

قلتُ: هو ذاك.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فأعني على نفسك بكثرة السجود».

فبسجود العبد لربه سبحانه وتعالى ينال العبد شرف العبودية لله تعالى، ورفعة الدرجة عند الله تعالى.

جاء في الحديث الطويل الذي رواه الترمذي، عن أبي كبشة الأنماري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاثة أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال من صدقة، ولا ظُلِم عَبْدٌ مظلمة فصبر عليها؛ إلا زاده الله بها عزاً، وما تواضع عَبْدٌ لله إلاّ رفعه الله تعالى» الحديث.

فبالسجود لله تعالى يَنال العبد رفعة المقام عند الله تعالى.

ويرحم الله القائل:

وإذا تذلَّلتِ الرِّقابُ تواضعاً ... منا إليك فعزّها في ذلها

أي: تَذللها لله العزيز العليم.

ويرحم الله القائل:

تذلّل لمن تهوىٰ لتكسب عزةً ... فَكَم عزة قَد نالها المرء بالذلّ

إذا كانَ من تهوىٰ عزيزاً ولم تكن ... ذليلاً له فاقرا السلام على الوصل

فبعبادة العبد لله تعالى رب العالمين، وبتذلله لله تعالى، ينال العبد العزة والكرامة، في الملأ الأعلىٰ والأدنى، لأن العزة هي لله جميعاً.

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الآية.

وفي هذا بيان من الله تعالى وإعلان للعقلاء، ذوي الإرادات السامية، وأُولي الهمم العالية، الطامحين إلى العزة والكرامة،

والمترفِّعين عن المذلة والمهانة ، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ فلا يظفرون بالعزة ، ولا ينالونها إلا بالتقرب إليه ، والتذلل له سبحانه ، ثم بيَّن لهم طريق التقرب إليه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾.

والمعنى: أَنَّ مَنْ أراد العزة حقاً؛ فليطلبها مِمَّن له العزة جميعاً ، وهو الله رب العالمين ، والسبيل الموصلة إلى ذلك هو: التقرب إليه سبحانه ، بما شرع من الكلم الطيب ، والعمل الصالح ، فإنهما لهما شأن كبير ، ومقام عزيز ، يُرفعان إلى الله تعالى ، ويُسجَّلان في ديوان عِلِّيين ، وبذلك ينال العبد الكرامة والشرف ، ويسجَّل في سجلِّ العز والشرف.

ثم إنَّ الكلم الطيب والأعمال الصالحة تجتمع مُتمثلة بأمثلة نورانية ، ويتعاطفن عند عرش الرحمن يُذكِّرن بصاحبهن ، ويَشْفَعْن به.

روى ابن ماجه وغيره ، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ مِمَّا تذكرون مِنْ جلال الله: التسبيح والتهليل والتحميد ، ينعطفن حَوْلَ العرش ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كدويِّ النحل ، تُذَكِّر بصاحبها ، أما يحب أحدكم أن يكون له ـ أَوْ لا يزال له ـ مَنْ يُذكِّر به» أي: يشفع به عند ربه.

ورواه الإمام أحمد بلفظ: «ألا يُحب أحدكم أن لا يزال له عند الله تعالى شيء يذكر به»[1].

(١) قال الحافظ المنذري بعدما أورد ذلك: ورواه ابن أبي الدنيا ، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم. ا هـ.

فبالتقرب إلى الله تعالى بالكلم الطيب ، والعمل الصالح ، يَنال العبد المؤمن عزّ الدنيا والآخرة.

روى الحاكم في (التاريخ) والديلمي ، وابن عساكر ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله تعالى يقول كل يوم: أنا ربكم العزيز ، فمن أراد عِزّ الدارين فلْيُطع العزيز».

أي: فليطع ويأتمر بما أمره الله تعالى به ، مِنَ الكلم الطيب ، والأعمال الصالحة ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ أي: يرفعه الله تعالى إليه ، كما جاء في (صحيح) مسلم، عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس كلمات فقال: «إن الله تعالى لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام ، يَخفض القِسْطَ ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقَتْ سُبُحات وجهه ما انتهىٰ إليه بَصره مِنْ خلقه».

فهذا نوع من أنواع رفع الأعمال ، وهو رفع عمل الليل ، ورفع عمل النهار.

وهناك رفع فوري:

روى الإمام أحمد ، والترمذي ، عن عبد الله بن السائب رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يُصلي أربعاً بعد أن تزول الشمس؛ قبل الظهر ـ أي: قبل فرض الظهر ـ وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنها ساعة تفتح فيها أبواب السماء ، فأحبّ أن يصعد لي فيها عمل صالح».

وهناك رفع أسبوعي ، وعرض الأعمال على الله تبارك وتعالى :

روى الإمام مسلم ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تُعرض الأعمال على الله تعالى في كل يوم خميس واثنين ، فيغفر الله تعالى لكل امرىء لا يُشرك بالله شيئاً؛ إلاَّ مَنْ كانت بينه وبين أخيه شحناء ، فيقول الله تعالى: اتركوا هذين حتى يَصْطلحا» .

وفي رواية لمسلم: «تفتح أبواب الجنة يوم الاثنين والخميس ، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلاّ رجلاً كان بينه وبين أخيه شحناء» الحديث .

والشحناء هي: البغضاء والحقد .

وهناك رفع شهري:

روى النسائي بإسناد حسن ، عن أسامة بن زيد رضي الله تعالى عنهما قال: قلت: يا رسول الله لَمْ أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ذاك شهر تغفل الناس عنه ، ما بين رجب ورمضان ، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين ، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»[1] .

---

(١) وقد فصلت الكلام على رفع الأعمال وأنواعه، ووجوه الحكمة في ذلك ، في كتاب (صعود الأقوال ورفع الأعمال) فارجع إليه تجد فيه خيراً كثيراً.

أمره صلى الله عليه وآله وسلم بالدعاء في السجود

جاء في الحديث ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا وإنّي نُهيت أنْ أقرأ القرآن راكعاً وساجداً ، فأما الركوع فعظموا فيه الربَّ ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فَقَمن ـ أي: جدير ـ أنْ يُستجاب لكم» رواه مسلم ، وأبو داود والنسائي كما في (التيسير).

وتقدم في الحديث الذي رواه مسلم قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء».

بعض ما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم من أدعية السجود

روى مسلم ، وأبو داود ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كلَّه: دقَّه وَجلَّه[1] ، أوّله وآخره ، سِرَّه وعلانيته».

وعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا سجد قال: «اللهم لَكَ سجدتُ ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره ، وشقَّ سمعه وبصره ، تبارك الله أحسن الخالقين».

ثم يكون آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «اللهم اغفر لي ما قدَّمت وما أخرت ، وما أسررتُ وما أعلنتُ ، وما أسرفتُ ،

---

(١) أي: صغيره وكبيره.

وما أنت أعلم به مني ، أنت المقدِّم ، وأنت المؤخِّر ، لا إلّه إلا أنت»[1] .

وعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت[2] : فقدتُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنَ الفراش ، فالتمسته فوقعتْ يدي على بطن قدميه وهو ساجد يقول : «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك مِنْ عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناءً عليك أَنْتَ كما أثْنيتَ على نفسك» .

وعنها رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في ركوعه وسجوده : «سُبُّوح قُدُّوس ، ربُّ الملائكة والروح»[3] .

وعن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده : «سبحانك اللهم ربَّنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي ـ يتأوّل القرآن » رواه الخمسة إلا الترمذي[4] .

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في معنى : «يتأوّل القرآن» ، قال : يعمل ما أمِر به ـ أي : ما أمره الله تعالى به في قوله سبحانه : ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ .

---

(١) قال في (التيسير) : رواه الخمسة إلا البخاري .

(٢) عزاه في (التيسير) لمالك ، والترمذي وأبي داود .

(٣) رواه مسلم ، وأبو داود والنسائي ، كما في (التيسير) ، والسبوح والقدوس هما مِنْ صِيَغ المبالغة في التسبيح والتقديس لله عز وجلّ .

(٤) كما في (التيسير) .

وعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: (قمت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليلة ، فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يَمرُّ بآية رحمة إلاَّ وقف وسأل ، ولا يمرُّ بآية عذاب إلا وَقف وتعوَّذ، ثم ركع بقدر قيامه يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت، والملكوت، والكبرياء، والعظمة» ثم قال: في سجوده مثل ذلك).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في (الأذكار): حديث صحيح ، رواه أبو داود والنسائي في (سننهما) والترمذي في كتاب (الشمائل) بأسانيد صحيحة. اهـ.

ومما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم مِنَ الدعاء بين السجدتين:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول بين السجدتين: «اللهم اغفر لي ، وارحمني ، واجبُرني ، واهدني وارزقني»[1].

وجاء في رواية البيهقي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، في حديث مبيته عند خالته أم المؤمنين ، السيدة ميمونة رضي الله عنها ، وصلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الليل فذكره ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا رفع رأسه من السجدة ـ أي: السجدة الأولى ـ قال: «ربِّ اغفر لي ، وارحمني ، واجبرني ، وارفعني ـ أي: ارفع درجاتي عندك ـ وارزقني واهدني».

---

(١) قال في (التيسير): رواه أبو داود والترمذي واللفظ له.

وجاء في رواية أبي داود: «وعافني»[1].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: واعلم أنَّه يستحب أن يجمع في سجوده جميع ما ذكرناه ـ أي: من الأدعية الواردة في السجود ـ قال: فإن لم يتمكن منه في وقت ـ أي: وقت واحد ـ أتىٰ به في أوقات، وإذا اقتصر يقتصر على التسبيح ـ أي: التسبيح ثلاثاً ـ مع قليل من الدعاء ـ أي: الدعاء الوارد ـ. هـ.

وقد ذكرت في كتاب (الصلاة في الإسلام) جملة من الأدعية الواردة في آخر الصلاة قبل السلام، وجملة من الأدعية الواردة بعد الفراغ من الصلاة فواظب على ذلك، فإن فيها خيراً كثيراً.

قوله تعالى: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾

هذه الآية الكريمة هي إحدىٰ الآيات التي يُطلب السجود عند تلاوتها.

جاء في الحديث الذي رواه الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يسجد في ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ وفي ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾.

وروى مسلم أيضاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد، اعتزل الشيطان ـ أي: تباعد عن الساجد ـ يبكي، ويقول: يا وَيْلتاه ـ وفي رواية يقول: «يا ويلي» ـ أُمر ابن آدم بالسجود

---

(١) انظر (الأذكار) للإمام النووي رحمه الله تعالى.

فسجد؛ فله الجنة ، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ؛ فلي النار».

وقد اختلفت الأئمة في حكم سجدة التلاوة ، فذهب الأئمة الحنفية إلى أنها واجبة ، وذهب الأئمة الشافعية إلى أنها سنة[1].

وأما كيفية سجدة التلاوة فهي عند الحنفية سَجْدة بين تكبيرتين ، مسنونتين ، وقيامين مستحبين ، بلا رفع يد ، وبلا تشهد ، ولا سلام ، فيكبر قائماً ، ثم يهوي إلى السجود ، ثم يكبر وينهض قائماً.

ويشترط لها ما يُشترط للصلاة مِنَ الطهارة ، والوضوء ، واستقبال القبلة ، ونحو ذلك.

وأما عند الشافعية فهي سنة كما تقدم ، ويشترط لها ما تقدم من الشروط ، والنية ، وتكبيرة الإحرام ، وسلام بعد الجلوس ، فهي سجدة بين تكبيرة الإحرام مع النية ، وبين سلام بعد الجلوس.

ويستحب أن يقول في سجود التلاوة ، بَعد أنْ يأتي بالتسبيحات ثلاثاً ـ سبحان ربي الأعلى ـ يقول بعد ذلك ، ما جاء عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في سجود القرآن:

«سجد وجهي للذي خلقه وصوَّره ، وشقّ سمعه وبصره ، بحوله وقوَّته ، فتبارك الله أحسن الخالِقين»[2].

---

(١) وقد ذكرت أدلة الطرفين في كتاب (تلاوة القرآن المجيد).

(٢) رواه أصحاب السنن إلى قوله: «بحوله وقوته» وزاد الحاكم في روايته: «فتبارك الله أحسن الخالقين» قال: وهذه الزيادة صحيحة على شرط (الصحيحين).

ويقول: «اللهم اجعلها لي عندك ذخراً، وأعظم لي بها أجراً، وَضَعْ عني بها وزراً، وتقبلها مني كما قبلتها من داود عليه السلام»[1].

فائدة:

قال في (الدّر المختار): **مُهمَّة لكل مهمَّة** ـ أي: لدفع كل مهمة ـ أي: حادثة تُحزن المسلم وتهمه ـ ثم نقل عن (الكافي): مَنْ قرأ آي السجدة كلها ـ أي: متوالية ـ في مجلس واحد، وسجد لكل منها ـ أي: سجد للكل عدد آيات السجدة ـ كفاه الله تعالى ما أهمَّه. ا هـ.

سجدة الشكر لله تعالى

جاء في الحديث، عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا جاءه أمر بسروره، أو يُسَرُّ به: خَرَّ ساجداً شاكراً لله تعالى) قال في (التيسير): رواه أبو داود والترمذي.

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مِنْ مكة نريد المدينة، فلما كان بعض الطريق، رفع يديه صلى الله عليه وآله وسلم فدعا الله تعالى، وخَرَّ ساجداً، ثم مكث طويلاً، ثم قام فرفع يديه ساعة، ثم خرَّ ساجداً، ففعل ذلك ثلاثاً، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إني سألتُ ربي وشفعتُ لأمتي فأعطاني ثلث أمتي، فَخررت لربي

---

(١) قال الإمام النووي في (الأذكار): رواه الترمذي مرفوعاً من رواية ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسن، وقال الحاكم: حديث صحيح. ا هـ.

ساجداً شاكراً ، ثم رفعت رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني ثلث أمتي ـ أي: الثلث الثاني ـ فخرَرتُ لربي ساجداً شاكراً ، ثم رفعتُ رأسي فسألت ربي لأمتي فأعطاني الثلث الأخير ، فخررت لربي ساجداً شاكراً» رواه أبو داود كما في (تيسير الوصول) وغيره[1].

قال في (الدّر المختار): وسجدة الشكر مستحبة به يفتى. ا هـ.

قال في (رد المحتار): وهي ـ أي: سجدة الشكر ـ مستحبة لمن تجددَّتْ عنده نعمة ظاهرة ، أو رزقه الله تعالى مالاً ، أو ولداً ، أو رُفعت عنه نقمة ونحو ذلك. ا هـ ـ أي: من كل ما فيه مَسرة أو دفع مضرَّة ـ.

قال في (ردّ المحتار): فيستحب له[2] أن يسجد لله تعالى شكراً ، مستقبل القبلة ، يحمد الله تعالى فيها ، ويسبحه ، ثم يكبر ، فيرفع رأسه ، كما في سجدة التلاوة. ا هـ.

وهذا مذهب جمهور العلماء ، وهو استحباب سجدة الشكر لله تعالى عند حصول: المسرَّة الظاهرة ، أو دفع المضرة ، مستدلين على ذلك بالحديث المتقدم.

وذهب جماعة آخرون من العلماء إلى أنَّ المراد بالسجود الوارد في الحديث المتقدم هو الصلاة ـ أي: صلاة ركعتين شكراً لله تعالى ـ وحجتهم في هذا التأويل هو ما ورد في الحديث الذي رواه

---

(١) وعزاه في (مشكاة المصابيح) إلى الإمام أحمد ، وأبي داود ، قال في المرقاة: رواه أبو داود من طريق عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه بإسناد جيد ، وسكت عليه أبو داود ، وأقرّه المنذري. ا هـ.

(٢) أي: للمكلف: مسلم أو مسلمة.

الدارمي وغيره ، عن شعثاء قالت: رأيت ابن أبي أوفىٰ رضي الله عنه صلى ركعتين ـ أي: شكراً لله تعالى ـ وقال: صلَّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالضحى ـ أي: في وقت الضحى ـ ركعتين حين بُشِّر بالفتح ، أو برأس أبي جهل[1].

والجمع بين القولين ، واختلاف العلماء المتقدم في سجدة الشكر ـ الجمع والتوفيق بين القولين هو أنه صلى الله عليه وآله وسلم قد فعل هذا وهذا ، أي: سجد شكراً لله تعالى أحياناً ، وصلى ركعتين شكراً لله تعالى أحياناً.

ومِنْ جملة الأدلة على استحباب سجدة الشكر ، ما رواه الإمام أحمد في (مسنده) عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سجد شُكراً لله تعالى لما جاءته البشرى من ربه تعالى «أنه مَنْ صلى عليكَ صليتُ عليه ، ومَنْ سَلّم عليك سلمتُ عليه».

وقد جاء في (صحيح) البخاري ، أن كعب بن مالك سَجد شكراً لله تعالى لما بُشِّر بتوبة الله تعالى عليه.

وذكر سعيد بن منصور ، أَنَّ أبا بكر الصديق خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سجد شكراً لله تعالى ، حين جاءه خبر قتل مسيلمة الكذَّاب.

❊ ❊ ❊

---

(١) أي: لما جيء برأس أبي جهل يوم بدر وألقاه ابن مسعود رضي الله عنه بين يديه صلى الله عليه وآله وسلم ، انظر ذلك في (شرح المرقاة) على (المشكاة).

فضائل الأسحار

قال الله تعالى في صفة المؤمنين المتقين: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: **الصابرين** على امتثال أوامر الله تعالى، وعبادته، مواظبين عليها في أوقاتها، المؤدين لها بآدابها، والخشوع فيها.

والصابرين على إمساك أنفسهم عن الوقوع فيما حرم الله تعالى، ونهى عنه.

والصابرين على المصائب والكربات التي تعتريهم وما يصيبهم من الأسقام والأمراض.

فالصبر على ثلاثة أنواع، وكلها داخلة في قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ صَبْرٌ على فعل أوامر الله تعالى وعبادته، كما قال سبحانه: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

فقد أمر سبحانه بالاصطبار على الصلاة، وذلك بأدائها في أوقاتها، والاعتدال في قيامها، والطمأنينة في ركوعها وسجودها وبين السجدتين فيها، ولا يعجل بالسجدتين كنقر الغراب[1].

---

(١) فقد جاء في الحديث النهي عن ذلك.

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ رجلاً دخل المسجد ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس في ناحية المسجد ، فصلى ـ أي : الرجل ـ ثم جاء فسلّم عليه صلى الله عليه وآله وسلم.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «وعليك ، ارجع فصلِّ فإنك لَمْ تصل».

فصلى ـ الرجل ـ ثم جاء فَسلّم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وعليك السلام ، ارجع فصلّ فإنّك لم تُصلّ».

فصلى ـ الرجل ـ ثم جاء فَسلَّم.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «وعليك السلام ، ارجع فصل فإنك لم تصل».

فقال الرجل: في الثانية ، أو في التي تليها ـ أي: الثالثة ـ قال: علِّمني يا رسول الله.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا قُمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، فكبِّر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع حتى تطمئنَّ راكعاً ، ثم ارفع حتى تستوي قائماً؛ ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً ، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً ـ أي: بين السجدتين ـ ثم افعل ذلك في صلاتك كلها»[1].

وروى الإمام أحمد ، والطبراني ، عن أبي قتادة رضي الله عنه

---

(١) انظر (ترغيب) المنذري.

قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «أسوأ الناس سرقة الذي يسرق مِنْ صلاته».

قالوا: يا رسول الله كيف يسرق من الصلاة؟

فقال: «لا يتم ركوعها ولا سجودها».

أي: لا يطمئن فيهما ـ وفي رواية: «لا يقيم صلبه في الركوع والسجود» ـ.

وأما الصبر عن المحرمات فهو: إمساك النفس عَمَّا حرم الله تعالى، وعمَّا يجرُّ ويوقع الإنسان في الحرام.

روى الشيخان، عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «الحلال بيِّنٌ، والحرام بَيِّنٌ[1]، وبينهما أمور مشتبهات ـ أي: قد تحصل بعض أمور مشتبهة ـ لا يعلمهن كثير مِنَ الناس».

ثم بَـيّن صلى الله عليه وآله وسلم ماذا يجب أن يكون موقف المسلم مع الأمور المشتبهات، التي قد تَقَع وتحصل، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «فمَنِ اتَّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعِرضه[2]، وَمَنْ وقع في الشبهات وقع في الحرام».

وفي رواية للصحيحين: «وَمَن اجترأ على ما يشكُّ فيه من الإثم؛ أَوْشكَ أَنْ يُواقع ما استبان».

---

(١) أي: واضح بيّن كما بينه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) أي: حصل على براءة دينه وعرضه من الوقوع في الحرام.

وفي رواية: «مَنْ يُخالط الريبة يُوشك أن يَجْسُر»[1] أي: أن يقدم على الحرام.

«كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، أَلا وإنّ لكل مَلِكٍ حِمى، أَلا وإنَّ حمى الله محارمه، أَلا وإن في الجسد مُضْغة: إذا صَلُحت: صلح الجسد كله، وإذا فسدتْ: فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب».

وأما الصبر على البلاء والمصائب ـ ونسأل الله تعالى العافية مِنْ ذلك كله ـ فالصبر على ذلك بالإمساك عن الضجر، والسخط على القدر، وما وراء ذلك، ويسأل الله تعالى العافية، فإذا فَعَل ذلك كانَ مَغْفِرة لذنوبه، ورفعة لدرجاته:

روى الشيخان، عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من مُصيبة تُصيب المسلم إلا كفر الله عنه بها، حتى الشوكة يُشاكها».

وفي رواية لمسلم: «لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها؛ إلا نَقَّصَ الله تعالى بها مِنْ خطيئته».

وفي رواية له: «إلا رفعه الله بها درجة، وحط عنه بها خطيئة»[2].

وروى الشيخان، عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما يصيب المؤمن مِنْ

---

(١) انظر (جامع العلوم والحكم) وغيره من الشروح.
(٢) انظر (ترغيب) المنذري.

نصَب ، ولا وصب[1] ، ولا هم ، ولا حَزَن ، ولا أذىً ، ولا غمّ؛ حتى الشوكةُ يشاكها: إلاَّ كفر الله بها من خطاياه».

وفي رواية مسلم: «ما يصيب المؤمن مِن وَصَب ، ولا نصب ، ولا سَقم ، ولا حزن ، حتى الهمّ يَهمُّه : إلا كُفِرَّ به مِنْ سيئاته»[2].

ويرحم الله تعالى القائل:

يا مَنْ عَدَا ثُم اعتدى ثم اقترف ... ثُم ارْعَوىٰ ثم اهتدى ثم اعترف
أَبْشِر بقول الله في آياتِه ... إنْ يَنْتهوا يُغْفَر لهم ما قد سلف

قول الله تعالى:
﴿ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾

والصادقين أي: الصادقين في أقوالهم ، وفي أعمالهم ، في السِّرِّ والعلانية ، وفي نياتهم وعزائمهم ، فإنه سبحانه وصفهم بالصادقين على وجه مُطلق ، فشمل هذا الوصف جميع أنواع الصدق: القولي ، والعملي ، والقلبي ، والحالي.

وإن أنواع الصدق متلازمة ، ومترابطة ، ويؤدِّي بعضها إلى بعض ، ويهدي بعضُها إلى بعض.

جاء في الحديث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بالصدق ، فإنَّ الصدق يهدي إلى البِرّ ، والبرُّ يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجلُ

---

(١) النصب: التعب ، والوصَب: المرض.
(٢) انظر (الترغيب).

يصْدق ويتحرَّى الصدق: حتى يُكتب عند الله صدِّيقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفُجور ، والفُجور يهدي إلى النار ، وما يزال العبد يكذب ، ويتحرَّى الكذب: حتى يكتب عند الله كذَّاباً»[١].

فالمداومة على الصدق تُوصل الصادق إلى البرِّ ـ أي: أعمال الإيمان ، والتقوى والخيرات ـ كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

ولذلك كانت النهاية إلى الجنة كما تقدم في الحديث: «وإنّ البر يهدي إلى الجنة» وبـيَّن صلى الله عليه وآله وسلم أن الرجل لا يزال يَصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، فيكتب في ديوان الصديقين ، ويُعلَن ذلك في الملأ الأعلى ، ويكون من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾.

نسألك اللهم أنْ تجعلنا منهم ، بفضلك يا ذا الفضل العظيم.

وروى ابن حبان في (صحيحه) عن أبي بكر الصديق رضي الله

---

(١) قال في (الترغيب): رواه الشيخان ، وأبو داود والترمذي وصححه واللفظ له.

عنه ، خليفة سيدنا رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «عليكم بالصدق فإنّه مع البرّ ؛ وهما في الجنة ، وإياكم والكذب ؛ فإنه مع الفجور وهما في النار».

والفجور يشمل جميع أنواع الفسوق والمعاصي ، لأن فيها مُجاوزة حُدود شريعة الله تعالى الحكيم العليم.

والمؤمن مأمور بالصدق في أعماله القلبية ، وفي جميع ما يعقد عليه قلبه ، من النِّيَّات والعزائم والهمم ، وأن يكون ذلك خالصاً لله تعالى ، يبتغي فضلاً من الله تعالى ورضواناً.

فقد يكون ظاهر العمل خيراً؛ ولكن النية فاسدة: فتُفسد العمل ، وينقلب سوءاً وشراً على صاحبه.

جاء في الحديث الذي رواه مسلم ، والنسائي وغيرهما ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن أول الناس يُقضىٰ يوم القيامة عليه: **رجل استُشهد** فأتي به ، فعرَّفه نعمته ـ أي: فعرفه الله تعالى نعمته عليه حين كان في الدنيا ـ فعرفها.

قال: فما عملت فيها؟

قال: قاتلت فيك حتى استشهدتُ.

قال: كذبت ـ أي: قال الله تعالى: كذبت ـ ولكنك قاتلت لأن يقال هو جَريءٌ فقد قيل ، ثم أُمِر به فسُحب على وجهه ، حتى أُلقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلَّمه ، وقرأ القرآن ، فأتي به ـ أي

للحساب ـ فعرَّفه نعمه ـ أي: عرفه الله تعالى نعمه عليه ـ قال: فعرفها.

قال ـ الله تعالى ـ : فما عملت فيها؟

فقال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن ـ أي: قرأت القرآن في سبيل ابتغاء رضاك ـ.

فقال الله تعالى: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارىء، فقد قيل ـ أي: أخذت جزاءك في الدنيا، ونلت ما أردته من المدح والشهرة ـ ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجل وسَّع الله تعالى عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأُتي به ـ أي: للحساب ـ فعرَّفه نعمه فعرفها.

قال: فما عملت فيها؟

فقال: ما تركتُ مِنْ سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لكَ.

قال ـ أي: قال الله تعالى له ـ : كذبتَ، ولكنك فعلْتَ ليقال هو جواد ـ أي: كريم ـ فقد قيل، ثم أُمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار»[1].

فالنيات السيئة تُفسد الأعمال التي ظاهرها حسنة وصالحة، وتجعلها سُوءاً على صاحبها.

وقد بيَّنَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنَّ نية المسلم الصادقة، إذا نوى بها عملاً صالحاً: صغيراً أو كبير، ولكنه عَجز

---

(١) كذا في (ترهيب) المنذري.

عنه ، ولا يستطيع أن يعمله : فإنّ الله تعالى يعطيه بصدق نيته أجر العامل ، والدليل على ذلك الأحاديث التالية :

جاء في الحديث ، عن أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : «إنّما الدنيا لأربعة نفر :

عبد رزقه الله تعالى مالاً وعلماً ، فهو يتَّقي فيه ربه ، ويَصِل فيه رحمه ، ويَعْلم لله فيه حقاً ـ أي : الزكاة يؤديها ـ فهذا بأفضل المنازل .

وعبد رزقه الله تعالى علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية ، يقول : لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعمل فلان ـ أي : التّقي المنفق ـ فهو بنيته وأجرهما سواء .

وعبد رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً ، يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقي فيه ربه ، ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم لله تعالى فيه حقاً ـ فهذا بأخبث المنازل .

وعبد لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان ـ أي : مثل ذلك العبد الذي عنده مال يَخبط فيه ، ويُسرف على نفسه ـ فهو بنيته فوزرهما سواء»[1] .

فنية عمل الخير الصادقة كالعمل إذا لم يقدر على العمل ، ونية السوء الجازمة مع العجز عن العمل كعمل السوء ، فلا تحرم نفسك ثواب عمل الخير ، انو عمله صادقاً إنْ لَم تستطعه ، واللهُ يؤجرك على ذلك فضلاً منه وكرماً .

---

(١) قال الحافظ المنذري : رواه أحمد ، والترمذي واللفظ له ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح ، ورواه ابن ماجه ا هـ .

ومِنْ وصايا الإمام أحمد رحمه الله تعالى لابنه عبد الله قال له: يا بني انو عمل الخير فإنْ قدرت عليه فاعمل، وإن لم تقدر فالله تعالى يؤجرك على نيتك الصادقة كالعمل. اهـ.

وعن أنس رضي الله عنه قال: رجعنا مِنْ غزوة تبوك مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إنَّ أقواماً خلفنا بالمدينة ـ أي تركناهم في المدينة ـ ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا ـ أي بنيتهم ولهم ثوابهم ـ حبسهم العذر» رواه البخاري، وأبو داود ولفظه: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا أنفقتم من نفقة، ولا قطعتم من وادٍ، إلا وهم معكم».

قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «حبسهم المرض»[١].

قول الله تعالى:
﴿ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾

﴿ وَٱلْقَـٰنِتِينَ ﴾ أي: الملازمين للطاعة، مع الانقياد والخضوع فيها لله رب العالمين ﴿ وَٱلْمُنفِقِينَ ﴾ أي: المنفقين مما رزقهم الله تعالى، فيما أمرهم الله تعالى مِنَ الأرحام والفقراء والمساكين واليتامى، قال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾.

---

(١) انظر (الترغيب) و(تيسير الوصول).

وقد تكفل سبحانه وتعالى بأن يُخلف على المنفق ، ويزيده من فضله سبحانه ، قال: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

جاء في الحديث ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما تصدق أحد بصدقة مِنْ طيّب[1] ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ إلا أخذها الرحمنُ بيمينه ، وكلتا يديه يمين؛ وإن كانت تمرة ، فتربو[2] بكف الرحمن ، حتى تكون أعظم من الجَبل ، كما يُربِّي أحدكم فُلُوَّه[3] ، أو فصيله» قال في (التيسير): رواه الستة إلا أبا داود.

وروى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما مِنْ يوم يصبح فيه العباد إلاَّ وملكان ينزلان منَ السماء ، يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً مالاً خلفا ، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً مالاً تَلَفا».

الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار:

جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه ، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال ـ فذكر الحديث وفيه ـ ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أدلك على أبواب الخير؟

---

(١) أي: المال الحلال.

(٢) أي: تكثر وتزيد.

(٣) الفُلوُّ هو: المُهْر أَوّل ما يولد ، والفصيل هو: ولد الناقة إلى أن يُفصل عن أمه. =

الصوم جُنة ـ أي: وقاية من النار ـ والصدقة تُطفيء الخطيئة كما يُطفيء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين» ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾.

الصدقة تدفع سوء الخاتمة:

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الصدقة لتطفيء غضب الربّ، وتدفع ميتَةَ السّوء». رواه الترمذي، وابن حبان في (صحيحه).

وعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الصدقة تَسدُّ سبعين باباً من السُّوء» رواه الطبراني في (الكبير).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «باكروا بالصدقة، فإنّ البلاء لا يتخطَّى الصدقة» رواه البيهقي مرفوعاً وموقوفاً.

وعن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها» رواه الطبراني[1].

---

(١) انظر (ترغيب) الحافظ المنذري.

قـول الله تـعـالـى :
﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾

بعدما ذكر الله تعالى مِنْ صفات عباده المؤمنين المتقين ، وأثنى عليهم بالفضائل المتقدمة، ختم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ .

والمعنى أنهم مُلازمون ودائمون على الاستغفار وقت السحر ، بَعْد أَن صلَّوا قيام الليل ، ختموا ذلك بالاستغفار بالأسحار ، وهو جمع سَحَر.

والسَّحَرُ هو: الثلث الأخير من الليل ، وفي هذا دليل على فضل وقت السَّحَر ، وبيان أنَّه وقت قبولٍ وإجابة ، وإحسان وغفران ، وأنَّ وقت السحر هو حقيق بأن يتوجَّه فيه العبد إلى ربه: مُصلِّيا ، وداعياً ، ومستغفراً ، ولذلك أخبر سبحانه عن عباده المؤمنين المتقين بأنهم ملازمون للاستغفار بالأسحار.

جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وصححه ، عن عمرو بن عبسة رضي الله عنه ، أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «أقربُ ما يكون الربُّ من العبد في جوف الليل الآخِر ، فإن استطعتَ أنِ تكون ممَّن يذكر الله في تلك الساعة فكن» أي: فابذل جُهدك المستطاع أن تكون مِمَّنْ يذكر الله تعالى في تلك الساعة: بصلاة ، أو دعاء ، أو قرآن ، أو استغفار ، ولا تتكاسل ،

ولا تتثاقل ، فإنّ الأجر عظيم ، والربح كبير ، فكن حريصاً على ذلك .

وقد روى الإمام أحمد الحديث المتقدّم بلفظ قال: قلت يا رسول الله أيّ الساعات أفضل .

قال : «جوف الليل الآخِر» .

وفي رواية له قال: «جوف الليل الآخر أجوب دعوة» .

وروىٰ ابن جرير ، وأحمد ، وابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن نستغفر بالأسحار سبعين استغفارة» أي: وله أن يزيد ما شاء .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا ، حين يبقىٰ ثلث الليل الآخِر فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له» قال في (التَّيسير): رواه الستَّة إلا النسائي .

ورواه البخاري بلفظ: عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يتنزَّل ربنا تبارك وتعالى كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا ، حين يبقىٰ الثلث الآخِر يقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه ، من يستغفرني فأغفر له» .

وفي رواية لمسلم: «من يُقرض غير عديم ولا ظلوم ، حتى يطلع الفجر» .

وفي رواية لغير البخاري ومسلم: «هل مَنْ تائب فأتوب عليه ،

مَنْ ذا الذي يسترزقني فأرزقه ، مَنْ ذا الذي يستكشف الضُّرَّ فأكشف عنه ، ألا سقيم يستشفي فيُشفىٰ».

وروى الإمام أحمد في (مسنده) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لولا أنْ أشقَّ على أمتي لأمرتهم ـ أي: على طريق الوجوب ـ بالسواك مع الوضُوء ، ولأخَّرت العشاء إلى ثلث الليل ـ أو نصف الليل ـ فإذا مضى ثلث الليل ـ أو نصف الليل ـ نزل إلى السماء الدنيا جلَّ وعزَّ فقال: هلْ مِنْ سائل فأعطيه ، هل مِنْ مستغفر فأغفر له ، هل من تائب فأتوب عليه ، هل مِن داعٍ فأجيبه؛ حتى يطلع الفجر».

وروى الإمام أحمد أيضاً ، عن رفاعة الجهني قال: أقبلنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، حتى إذا كنا بالكَدِيْدِ ـ أو قال: بقديد ـ جعل رجال منا يستأذنون إلى أهليهم ، فيؤذن لهم ، قال: فحمد الله وأثنى عليه وقال خيراً ، ثم قال: «أشهد عند الله: لا يموت عبد شهد أن لا إلّه إلا الله وأن محمداً رسول الله صادقاً مِنْ قلبه ثُم يُسَدِّد: إلاّ سُلك ـ أي: أُدخل ـ في الجنة».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وعدني ربي عز وجل أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب ، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تُبوَّؤوا أنتم ومن صلح مِنْ أزواجكم وذراريكم مساكن في الجنة».

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا مضى نصف الليل أو ثلث الليل ، ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا فيقول: لا أسأل عن عبادي أحداً غيري ، مَنْ ذا الذي يستغفرني فأغفر له ، مَنْ ذا الذي

يدعوني فأستجيب له ، مَنْ ذا الذي يسألني فأعطيه؛ حتى ينفجر الفجر».

وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يخرج من ناحية داره مستخفياً وقت السحر ، ويقول: (اللهم إنك دعوتني فأجبتك ، وأمرتني فأطعتك ، وهذا السحر فاغفر لي).

فقيل له في ذلك.

فقال: (إنّ يعقوب عليه السلام حين سَوَّف بنيه ـ أي: وعدهم بأن يستغفر لهم وقال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ ـ أخرهم إلى السحر) أي: لأن وقت السحر لا يخيب فيه المستغفرون كما قال سبحانه: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

فوقت السحر له فضل كبير ، وأثر عظيم في إجابة دعاء الداعين ، وفي عطاء السائلين ، وفي مغفرة ذنوب المستغفرين.

وكيف لا يكون ذلك والله تعالى ذو الفضل والإكرام ، والطَّوْل والإنعام ، هو سبحانه جل وعلا ينادي فيه عباده يقول لهم: «مَنْ يدعوني فأستجيب له ، مَنْ يسألني فأعطيه ، مَنْ يستغفرني فأغفر له» أتظن أنه بعد ذلك إذا دعوه وسألوه واستغفروه ، أتظن أنه يَردهم خائبين كلا ، ثم كلا ، فإنه أجلُّ من ذلك وأكرم وأعظم ، وأمنّ وأنعم ، وأرأف وأرحم ، جلَّ وعلا سبحانه وتعالى ، فلولا أنه يُحب أن يجيبهم ويعطيهم ويغفر لهم إذا استغفروه؛ لولا أنه يُحب لهم ذلك ما فتح باب الدعاء والعطاء والغفران لهم.

فيا أيها المؤمنون والمؤمنات ، ألا تُحبونَ أنْ يغفر الله تعالى

لكم ، وأنْ يستجيب لكم دعاءكم ، وأنْ يُعطيكم سؤالكم ، وأن يتفضل عليكم.

فاحرصوا كل الحرص على وقت السحر ، تصلُّون ، وتدعون ، وتستغفرون ، كلٌّ على حسب استطاعته ، ولو قبل طلوع الفجر بقليل.

فقد قال حبيبنا ورسولنا ، إمام الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين في الحديث المتقدم ، عن عَمْرو بن عبسة: «أقرب ما يكون الربّ مِنَ العبد في جوف الليل الآخِر ، فإن استطعت أنْ تكون ممَّن يذكر الله تعالى في تلك الساعة فكن».

أي: فا بذل جهدك المستطاع في ذلك ، ولا تحرم نفسك الفضل العظيم مما هنالك.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: (صلّوا ركعتين في ظلمة الليل لظلمة القبر) اهـ أي: لتضيء لكم ظلمات القبر.

ويرحم الله القائل:

صلاتك نور والعباد رقود ونومك ضدٌّ للصلاة عنيد

روى الإمام البزار في (مسنده) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «مَهْلاً عن الله مهلاً ، فَلَوْلا عباد رُكَّع ، وأطفال رُضَّع ، وبهائم رُتَّع: لصُبَّ عليكم العذاب صباً».

ورواه الطبراني والبيهقي بلفظ: «لولا عباد لله رُكَّع ، وصبيةٌ رضَّع ، وبهائم رُتَّع: لصُبَّ عليكم العذاب صباً، ثم رُصَّ رَصّاً»[1].

---

(١) انظر (الفتح الكبير).

ويرحم الله تعالى القائل:

لـولا عبـاد لـلإلّـه ركـع   وصبيـة مِـنَ اليتـامـى رُضَّـع
وَمُهمـلات فـي الفـلاة رُتَّـع   صُبَّ عليكم العذاب المُوجع

والقائل:

لولا الذين لهم وِرْد يصلونا   وآخرون لهم سَرْد يصومونا
لدُكدكت أرضكم من تحتكم سحراً   لأنكـم قـوم سـوء مـا تطيعـونـا

رأى بعض الصالحين في منامه كأن الملائكة نزلت إلى بلادٍ شتى، فقال بعضهم لبعض: اخسفوا بهذه القرية.

فقال بعضهم: كيف نخسف بها وفيها فلان قائم يصلي.

وروى الطبراني، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنَّ الله تعالىٰ ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيتٍ مِنْ جيرانه البلاء».

وروى البيهقي، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ الله تعالى يقول: إني لأهم بأهل الأرض عذاباً، فإذا نظرت إلى عمَّار بيوتي [1]، والمتحابين فيَّ، والمستغفرين بالأسحار؛ صرفت عذابي عنهم».

روى مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبىٰ للغرباء».

وفي رواية الترمذي وغيره، قيل: يا رسول الله ومَنِ الغرباء؟

---

(١) أي: الذين يعمرونها بالصلاة فيها.

قال: «الذين يُصلحون ما أفسد الناس بعدي مِنْ سنتي»[1] أي شريعته، وما جاءهم به صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى مسلم في (صحيحه)، عن معقل بن يسار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «العبادة في الهرج كالهجرة إليّ».

ورواه الإمام أحمد بلفظ: «العبادة في الفتنة كالهجرة إليّ».

فالعبادة في زمن الفتن والفساد ثوابها عظيم، فعلى المؤمن أن يتمسك بدينه، ويقيم على طاعته وعبادته لله تعالى؛ مَهْما كثرت الفتن وانتشرت المفاسد، والضلالات، وأنواع الفسق والفساد، وقد حذَّر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمته مِنْ كثرة الفتن التي تقع في آخر الزمان:

روى الإمام مسلم، عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «تُعرض الفتن على القلوب كالحصير، عَوداً عَوداً[2]، فأيُّ قلب أشربها[3] ـ أي:

---

(١) انظر شرح المناوي على (الجامع الصغير) وقال المناوي: في معنى: «بدأ غريباً» قال: أي: ظهر غريباً في قلة من الناس، ثم انتشر اهـ أي: ثم انتشر الدين وظهر في مشارق الأرض ومغاربها.

(٢) قال في (تيسير الوصول): معناه: أنَّ القلوب تحيط بها الفتن، حتى تكون فيها كالمحصور والمحبوس، يقال: حصره القوم إن أحاطوا به، وضيقوا عليه، ومعنى: «عَوْداً عَوداً» أي: مرة بعد مرة اهـ ويروى بضم العين.

(٣) أي: قَبِلها وسكن إليها.

قبلها ـ نُكتت فيه نكتة سوداء ، وأيُّ قلب أنكرها ــ أي: وردَّها بقوة إيمانه ـ نكتت فيه ـ أي: قلبه ـ نكتة[1] بيضاء ، حتى تصير ـ أي: القلوب ـ على قلبين: قلب أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ، ما دامت السموات والأرض ـ أي: وهو قلب المؤمن الصادق ـ .

والآخر أسود مُربادّ [2] ، كالكوز مُجَخِّياً [3] ، لا يعرف معروفاً ، ولا يُنكر منكراً ، إلا ما أُشرب مِنْ هواه» كذا في (التيسير).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع[4] الليل المظلم ، يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً؛ يبيع ـ أي: يبيع أحدهم ـ دينه بعَرضٍ مِنَ الدنيا» رواه مسلم ، والترمذي.

وفي رواية أحمد: «يبيع أقوام خلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا».

ويشمل ذلك من يستحل ما حرَّم الله تعالى ، أو يدخل عليه الشك في بعض العقائـد الإيمانيـة القطعية ، أو يهزأ ببعض آيات الله تعالى القرآنيـة ، أو ببعض الأحاديث النبوية الثابتة عن

---

(١) النكتة هي: الأثر.

(٢) هو: الأسود المغبَّر.

(٣) المجخي: هو المائل عن الاستقامة والاعتدال ، فشبه: القلب الذي لا يعي خيراً بالكوز المائل ، أي: الكأس المائل الذي لا يثبت فيه شيء مِنْ مَاء ولا غيره. ا هـ. (النهاية).

(٤) جمع قطعة.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو يستهين بذلك ، أو يسخر من ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴾ .

وقال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ[1] فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ أي: دون شك ولا انتقاد ، ولا اعتراض ، هذا هو الإيمان الصادق .

قال الإمام السيد جعفر الصادق رضي الله عنه: لو أنَّ قوماً عبدوا الله تعالى ، وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وصاموا رمضان ، وحجوا البيت ، ثم قالوا لشيء صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ألا صنع خلاف ما صنع ، أو وجدوا في أنفسهم حرجاً ـ أي: لما فعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو قضى به ، أو حكم به ـ لكانوا كافرين ، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ .

---

(١) أي: يجعلوك حاكماً ، ويترافعوا إليك لتحكم بينهم فيما اختلفوا فيه من الأمور ، ثم بعد التحاكم إليك لا يَجدون في أنفسهم وقلوبهم ضيقاً أو شكّاً مما قضيت ، ويُسلموا تسليماً لحكمك دون توقف ولا تردد ، فهذا موقف المؤمن مَعَ مَا جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً .

أي: بلا توقف ولا تردّد ، ولا اعتراض ولا انتقاد ، بل استسلم لذلك عن إيمان واعتقاد.

وقد بين الله تعالى في كتابه العزيز موقف المؤمنين الصادقين ، عند التحاكم إلى الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما بيّن موقف المنافقين الكاذبين ، عند التحاكم إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم:

قال الله تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ أي: منقادين لذلك حيث وافق هواهم ، وطمعهم ، ورغبتهم ، ولولا ذلك لما أتوا لحكم الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال الله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ بأن يظلمهم ، أو يهضم حقهم ، ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ثم بين الله تعالى موقف المؤمنين عند التحاكم إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ اللهم اجعلنا منهم آمين.

ومن هنا يتبين للمؤمن كيف يجب عليه أن يكون موقفه مع الشريعة المحمدية الغراء ، التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إمام الأنبياء والمرسلين ، وخاتمهم أجمعين ، فإنها الشريعة الكافية والكافلة لسعادة الدنيا والآخرة ، والضامنة لصلاح

الدنيا والآخرة ، والشاملة لمصالح الدنيا والآخرة ، مهما امتدَّت العصور، واختلفت الأشكال، وتعاقبت الأجيال ، لا تحتاج إلى تعديل ولا تبديل ، فإنها المحكمة الباقية ، ذات المبادىء السامية الراقية ، التي بلغت منتهى الكمال وغاية الجمال ، في جميع مبادئها وأحكامها، وأوامرها ومناهيها ، وآدابها التي جاءت بها وأخلاقها ، وإلى ذلك كله يشير قول الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ الآية الكريمة .

وقد أنزلها الله تعالى على أكرم الأولين والآخرين ، حبيب رب العالمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو في حجة الوداع ، إعلاناً بأكمليَّة هذا الدين القويم ، وإعلاماً بأفضلية هذا الشرع الحكيم .

وقد جاء عن عمر رضي الله عنه كما في (الصحيحين) ، وغيرهما أنَّ هذه الآية الكريمة أنزلها الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في يوم عرفة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعرفة في يوم الجمعة . اهـ وذلك في حجة الوداع ، وقرأها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو بعرفة ، وأسمعها جميع مَنْ كان معه على كثرتهم ، وتجمعهم ، وتوافدهم من شتَّى البقاع ، للحج مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وليشهدوا ويُشاهدوا تلك الأنوار المحمدية، وطلعته الساطعة البهيَّة ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وعلينا معهم ، وسلم تسليماً في كل لمحة ونفس ، وغدوة وعشية .

سأل بعض التابعين الرُبَيِّع بنت معوِّذ الصحابية رضي الله عنها فقال لها : صفي لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فقالت: يا بنيّ ماذا أقول؟ إذا رأيته قلتَ: **الشمسُ طالعة**. ا هـ. صلى الله عليه وآله وسلم.

ويرحم الله تعالى القائل:

فيـا أيهـا الحيـران فـي ظُلمـة الـدُّجىٰ
ومَـنْ خـاف أن يلقـاه ضيـم مـن العِـدا

تعـــالَ إليـــه تلـــق مـــن نـــور وجهـــه
دليـــلاً ومِـــنْ كَفَّيـــه بحـــراً مِـــنَ النَّـــدىٰ

صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وعلينا معهم أبد الآبدين آمين.

ويرحم الله تعالى القائل:

إليكَ ـ يا سيدنا يا رسول الله ـ

وإلاَّ لا تشـــدّ الـــركـــائـــب وعنك وإلاَّ فالمحدِّث كاذب
وحبُّك يا خير النبيين مذهبي وللناس فيما يعشقون مذاهب
وحبُّ حبيب الله روحي ومطلبي وعن مذهبي في الحب مالي مذهب

ويرحم الله تعالى القائل:

إذا كنـت في بـاب النبـي ﷺ فـلا تخـف
وإنْ عـارضتـك الجـنَّ يـا خـلُّ والإنـس

تعـــرَّفْ لأقـــوام يـــدينـــون حبَّـــه
وبـــاعِـــد أنـــاســـاً قـــد تخبَّطهـــم مـــسُّ

فـــإن مُحـــبَّ الحـــق يـــأوي لأهلـــه
بـــلا ريبـــة والجنـــس يـــألفـــه الجنـــس

فـائــدة:

أكثر مِنَ الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ما استطعتَ ، فقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة» أي: أحقُّهم بشفاعتي ، وقربي يوم القيامة.

صلوات الله وسلامه عليه ، وآله وأصحابه ، وعلينا معهم أجمعين ، في كل لمحة ونفسٍ عدد ما وسعه علم الله العظيم - آمين.

إذا أنت أكثرتَ الصلاة على الذي ... صلَّى عليه الله في الآيات

وجعلتها وِرْداً عليك مُحتَّماً ... لاحتْ عليك دلائل الخيرات

صلَّى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وعلينا معهم ، عدد خلقه ، ورضاء نفسه ، وزنة عرشه ، ومداد كلماته ، سبحانه وتعالى.

لا تؤخِّر عمل اليوم إلى الغد

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «اغتنم خمساً قبل خمس: حياتك قبل موتك ، وصحتك قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وغناك قبل فقرك»[1].

---

(١) عزاه في (الجامع الصغير) للبيهقي ، والحاكم وغيرهما ورمز إلى حسنه قال في شرح المناوي: وقد أخرجه النسائي في (المواعظ).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «بادروا بالأعمال سبعاً: ما تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مُطغياً، أوْ مرضاً مفسداً، أوْ هرماً مُفْنِداً[1]، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فإنه شرٌّ منتظر، أو الساعة والساعة أدهىٰ وأمرّ»[2].

وروى الترمذي، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (مَنْ كان له مال يبلّغه بيت ربه ـ أي: حج البيت المعظم ـ أوتجب فيه زكاة فلم يفعل ذلك: سأل الرجعة عند الموت) ـ أي: إذا نزل به الموت يسأل الله تعالى أن يرجعه إلى دنياه ليزكي وليحج ـ.

فقال له رجل: اتق الله يا ابن عباس، فإنما يسأل الرجعة الكفار ـ أي: كما قال تعالى فيهم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ الآية.

فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: سأتلوا عليكم بذلك قرآناً ـ أي: فيه الدليل القاطع على أنَّ تارك الزكاة والحج وقد وجبا عليه، فإنه يتمنى ويسأل الرجعة عند الموت ـ ثم قرأ ابن عباس قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ

---

(١) أي: قد لا يحسن في كلامه.

(٢) عزاه في (الجامع الصغير) إلى الترمذي والحاكم رامزاً لصحته.

﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

أكثر من تلاوة كتاب الله تعالى ما استطعت وكلَّما ختمت ختمة فابدأ بغيرها

روى الإمام الترمذي وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رجل يا رسول الله: أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله تعالى؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الحالُّ المرتحل».

فقال الرجل: وما الحالُّ المرتحل؟ ـ أي: ما المراد هنا بالحالّ المرتحل ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «الذي يَضرب ـ أي: يبدأ ـ مِنْ أوّل القرآن إلى آخره، كلَّما حَلَّ ارتحل» أي: كلما ختم ختمة أتبعها غيرها.

وروى الترمذي أيضاً، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يقول الله تبارك وتعالى: مَنْ شغله القرآن ـ أي: قراءة القرآن ـ عن مسألتي ـ أي: عن دعائي ـ أعطيته أفضل ما أعطي السائلين».

وعن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة

---

(١) انظر (تيسير الوصول).

الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاقٌّ له أجران»[1] .

أي : أجر القراءة ، وأجر المشقة .

والماهر هو الحاذق الكامل المتقن ، الذي لا يتوقف فهو مع السفرة الكرام البررة - أي : الملائكة عليهم السلام - له أجره العظيم ، ومقامه الرفيع .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «مَنْ قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول الٓم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف»[2] .

أي : فمن قرأ ﴿الٓمٓ﴾ فقد قرأ ثلاثة حروف ، وله ثلاثون حسنة ، وفي هذا دليل على أن قراءة القرآن الكريم أجرها مضاعف ، ولو عَنْ غير فهم ، لأن أكثر الناس لا يعلمون معنى الٓم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : «يجيء صاحب القرآن يوم القيامة فيقول القرآن : يا ربِّ حَلِّه ، فيُلبَس تاج الكرامة ، ثم يقول : يا ربِّ زِده ، فيُلبَس حُلَّة الكرامة ، ثم يقول : يا ربِّ ارض عنه ، فيرضى عنه ، فيقال له - أي : في الجنة - : اقرأ وارق ، ويزداد بكل آية حسنة» رواه

---

(١) رواه الشيخان ، والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه كما في (الترغيب) .

(٢) رواه الترمذي وصححه .

الترمذي ، وابن خزيمة ، والحاكم وقال: صحيح الإسناد ا هـ كما في (ترغيب) الحافظ المنذري.

مَنْ أراد أن يكون من أهل الله تعالى وخاصَّته
فليكثر من تلاوة القرآن الكريم مع العمل به
ولا يتحقق العمل بالقرآن إلا باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

جاء في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ لله تعالى أهلين من الناس».

قالوا: مَنْ هم يا رسول الله؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أهل القرآن هم أهل الله وخاصَّته».

قال الحافظ المنذري: رواه النسائي وابن ماجه ، والحاكم بإسناد صحيح. ا هـ قلت: ورواه الإمام أحمد في (مسنده).

قال عبد الله: ولا يتحقق العمل بما جاء به القرآن الكريم إلا باتباع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حقّاً ، فإن الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

وقال: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فالعمل بالقرآن لا يتحقق إلا بمتابعته صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن الله تعالى قد بيّن لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم القرآن ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ أي: في صدرك ﴿وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: أن تقرأه مرتلاً ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: نبينه لك ، ثم هو صلى الله عليه وآله وسلم يبينه

للناس ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ الآية.

ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله تعالى وسنة نبيكم» أي: فهما متلازمان أبداً.

إذا ختمت الختمة مِنَ القرآن الكريم فادع الله تعالى فإن الدعاء مجاب عند الختم للقارىء الذي ختم وللذي حضر الختم

روى الطبراني ، عن العرباض بن سارية رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ صلى صلاة فريضة فله دعوة مستجابة ، ومن ختم القرآن فله دعوة مستجابة».

وروىٰ الخطيب ، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «إنّ لصاحب القرآن عند ختمه دَعْوة مستجابة ، وشجرة في الجنة ، لو أن غراباً طار من أصلها لم ينته إلى فرعها حتى يدركه الهرم».

وروىٰ ابن مردويه ، عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «إنّ لقارىء القرآن دعوة مستجابة ، فإن شاء صاحبها تعجلها في الدنيا ، وإن شاء ادَّخرها إلى الآخرة».

ولذلك قال الإمام النووي رضي الله عنه: ويستحب الدعاء عند الختم استحباباً مؤكداً ، قال: وينبغي أن يلحَّ في الدعاء ، وأن يدْعو بالأمور المهمة ، وأن يُكثر مِنْ ذلك في صلاح المسلمين اهـ.

هذا وقد ذكرت في كتاب (تلاوة القرآن المجيد) جملة واسعة من آداب الختم، وبعض الأحاديث في الدعاء، فارجع إلى ذلك ينفعك الله تعالى به في الدنيا والآخرة.

قال الحافظ السيوطي رضي الله عنه في (الإتقان): روى الدارمي بسند حسن، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن أُبي بن كعب رضي الله عنه: أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قرأ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ أي: عند ختم القرآن افتتح مِنَ الحمد، ثم قرأ من سورة البقرة إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ ثم دعا بدعاء الختم، ثم قام. اهـ.

وروى الديلمي والحاكم عن أبي أمامة مرفوعاً: «إذا ختم أحدكم ـ أي: ختم القرآن ـ فليقل: اللهم آنِسْ وحشتي في قبري» أي: فإن القرآن يكون مؤنساً له فيه، ومنوِّراً له ظلمة القبر، وما وراء ذلك.

تحذير المسلم والمسلمة مِنْ ترك العمل بالقرآن الكريم

قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: فاتبعوا أوامره، واتقوا، واجتنبوا ما نهى عنه.

روى الإمام أحمد في (المسند)، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «يا حذيفة تعلَّم كتاب الله تعالى، واتبع ما فيه» قال ذلك ثلاث مرات.

فالله تعالى أنزل كتابه الكريم للاتباع، والعمل، لا للهجر والكسل، فحقٌّ على كل مُكلَّف الاعتقاد بعقائده، والائتمار والعمل بأوامره، والانتهاء عن مناهيه.

روى النسائي[1] عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خطب الناس عام تبوك ، وهو مسند ظهره إلى نخلة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «ألا أخبركم بخير الناس وشرّ الناس؟

إنَّ مِنْ خير الناس رجلاً عمل في سبيل الله على ظهر فرسه ، أو على ظهر بعيره ، أو على قدميه؛ حتى يأتيه الموت.

وإنَّ مِنْ شَرِّ الناس رجلاً فاجراً ، جريئاً ، يقرأ كتاب الله تعالى ولا يرعوي».

أي: لا يكفُّ ولا ينزجر عن القبيح الذي نهى عنه القرآن الكريم ، ولا يتعظ بمواعظه.

وعن جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «القرآن شافع مشفَّع ، وماحل مُصدَّق ، مَنْ جعله أمامه: قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلف ظهره: ساقه إلى النار»[2].

والمعنى: من قرأ القرآن ، وعمل بما فيه قاده إلى الجنة ، ومن أعرض عنه ، ولم يتبع ما جاء به ساقه إلى النار.

ومعنى: «ماحِلٌ» بكسر الحاء المهملة أي: ساع ، وقيل: خصم مجادل ، كذا قال المنذري. اهـ.

---

(١) ورواه الإمام أحمد ، والحاكم وصححه.

(٢) رواه ابن حبان في (صحيحه) كما في (الترغيب) للمنذري.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والقرآن حجة لك أو عليك».

يعني: أنَّ القرآن العظيم هو حُجَّة لك يوم القيامة، يشهد لك، ويدافع عنك، إن عملت بأوامره، وانتهيت عما نهاك عنه، واتبعت ما جاء به.

وهو حجة عليك يوم القيامة إذا لَمْ تعمل به، ولم تتبع ما جاء به، بل خالفت ذلك.

روى الإمام مسلم، عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء ـ وفي رواية: «والصوم ضياء» ـ والقرآن حجَّة لك أو عليك، كلُّ الناس يغدو، فبائع نفسه: فمعتقها أو موبقها».

ومعنى هذه الجملة الأخيرة: إن كل إنسان إما أن يكون غادياً وساعياً في سلامته، وسعادته، وعتقه مِنَ النار، وإما أن يكون غادياً وساعياً في شقاء نفسه، وهلاكها، ودخولها في جهنم، وذلك بأن باع نفسه في اتباع الأهواء الفاسدة، والشهوات المحرمة، وانغمس في المعاصي، فقد خسر نفسه في الدنيا والآخرة فهو: موبق ـ أي: مهلك ـ نفسه.

أمَّا الأول فهو الذي سعى في طاعة الله تعالى، متبعاً لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقد باع نفسه لله تعالى، وأعتقها من عذابه وعقابه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

فأسلموا أنفسهم لله تعالى، واستسلموا، وأطاعوا أوامره، واجتنبوا مناهيه، فإذا دخل وقت الصلاة قاموا للصلاة، وإذا وجبت عليهم الزكاة أدَّوها كاملة؛ عن طيب نفس، وإنْ دخل شهر رمضان صاموا مؤتمرين وممتثلين لأمره سبحانه، لأنهم أسلموا أنفسهم لله تعالى، مستسلمين لأوامره وأحكامه التي شرعها لهم، وإنْ وجب عليهم الحج امتثلوا أمر الله تعالى فحجوا، وإن وجب عليهم قتال الكفرة أعداء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم قاتلوا، وجاهدوا في سبيل الله تعالى، فهم مستسلمون لأوامره سبحانه، ومنتهون عما نهاهم، لأنهم باعوا أنفسهم وأموالهم لله تعالى، فيتصرفون فيها كما أمرهم الله تعالى، وشرع لهم، لأنه سبحانه اشتراها منهم.

وقد وصفهم الله تعالى فقال بعد ما ذكر الآية المتقدمة: ﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ اللهم اجعلنا منهم بفضلك وعافيتك آمين، بجاه إمام الأنبياء والمرسلين، صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ البشارة هي الخبر السارّ الذي

ليس عند المبشَّر علم به ، وأما إذا لم يكن الخبر ساراً كقوله تعالى في الكفار: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فهذا من الاستعارة التهكمية استهزاءً بهم.

وقد ذكر الله تعالى بشراه لعباده المؤمنين ، وذكر أنواعاً متعددة من البشائر لهم في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز ، وفي ذلك حكَمٌ كبيرة كثيرة عالية لا يُحيط بعلمها إلا الله تعالى ، أذكر طرفاً منها:

أولاً: في تلك البشائر تزداد وتقوى همَّة الجادِّين في عباداتهم لله رب العالمين ، ويعظم نشاطهم في طاعاتهم ، وقرباتهم التي يتقربون بها إلى ربهم ، ويسارعون فيها ، ويتسابقون ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، كما قال سبحانه: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ ﴾ الآية.

ثانياً: في تلك البشائر الإلَهية ، يزيدهم الله تعالى إيماناً مع إيمانهم ، كما قال سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴾.

ثالثاً: في تلك البشائر الإلَهية إدخال السرور عليهم ، والفرح بفضل الله تعالى عليهم ، ورحمته بهم ، وتكريمه سبحانه وتعالى لهم:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

فالفرح الأعظم، والسرور الأكبر هو: بفضل الله، وبرحمته، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون من أموال الدنيا، وحطامها وزخارفها.

أمَّا فضل الله تعالى عليهم فهو الهداية للإيمان، فهو المنة الكبرى، والنعمة العظمىٰ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسير الرحمة هنا هو: سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قلت: ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: هو صلى الله عليه وآله وسلم حريص عليكم بأن يُوصل إليكم كل خير، ويباعد عنكم كل شر في الدنيا والآخرة ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ والرأفة هي:

رفع المضرَّات ، والمؤذيات ، والمزعجات ، وأما الرحمة فهي: جلب الخيرات ، والمحاسن ، والمسرَّات.

ولما كان سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو رحمة الله تعالى الكبرى ، وحجته العظمى على العالم ، امتن الله تعالى على العباد ببعثته صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل بعثته صلى الله عليه وآله وسلم ﴿لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

روى الإمام مسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ادعُ على المشركين.

قال: «إني لَمْ أُبعث لعَّاناً ، وإنما بُعثتُ رحمة» صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى عبد بن حميد ، عن عكرمة رضي الله عنه قال: قيل يا رسول الله ألا تلعن قريشاً بما أتوك ـ أي: بسبب ما آذوك ـ.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لَم أُبعث لعَّاناً ، إنما بُعثتُ رحمة » يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾.

وروى أبو نعيم في (الدلائل) عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الله بعثني رحمة للعالمين ، وهدى للمتقين».

وروى البيهقي في (الدلائل) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما أنا رحمة مُهداة». أي: أهداها الله تعالى للعالمين ، صلى الله عليه وآله وسلم.

اللهم ارحمنا بمن أرسلته رحمة للعالمين ـ آمين.

فالبشائر الإلّهية يفرح بها العبد المؤمن ، وَيَدخل عليه السرور التام ، والاغتباط بما بُشر به ، وقد يبكي مِنْ شدَّة فرحه.

روى الإمام البخاري في (صحيحه) عن أنس رضي الله عنه قال: (قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبيّ بن كعب: «إنّ الله أمرني أنْ أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾» أي: السورة كلها.

فقال أبي: وسمّاني لك ـ أي: ذكرني الله تعالى باسمي ـ؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «نعم» فبكى).

وفي رواية للبخاري أيضاً ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبي: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن» أي: سورة البينة.

فقال أُبيّ: آللهُ سمَّاني لك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهُ سمَّاك» فجعل أُبيّ يبكي.

وجاء في رواية للإمام أحمد ، عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إني أمرتُ أَنْ أقرأ عليك سورة كذا وكذا» أي: سورة البينة.

فقلت: يا رسول الله وقد ذُكرتُ هناك ـ أي: ذكرني الله تعالى في الملأ الأعلى ـ.

فقال صلى الله عليه وسلم: «نعم» فبكى أبيّ.

فَقِيْل لأبي بن كعب: يا أبا المنذر ففرحت بذلك؟

فقال: وما يمنعني ـ أن أفرح ـ والله تعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

وإن ذكر الله تعالى لعبده في الملأ الأعلى هي رتبة عليا، ومِنّة عظمى، كما جاء في (صحيح) مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى، يتلون كتاب الله تعالى، ويتدارسونه بينهم: إلاّ نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده» أي: في الملأ الأعلى.

رابعاً: البشائر الإلَهية تطمئن بها القلوب، وتنشرح بها الصدور:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

خامساً: البشائر الإلَهية للمؤمنين تزيد في إيمانهم الجازم، ويقينهم الصادق.

قال الله تعالى: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا

﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ الآية.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ هذا يدل على وجوه من المعاني متعددة؛ ولا ينافي بعضها بعضاً، وكلها واردة إما عن: الصحابة رضي الله عنهم، أو المفسرين من التابعين:

الوجه الأول: أن المراد بقدم صدق هو أعمال صالحة قدَّموها، وهم صادقون فيها، كما قيل:

صَلِّ لذي العرش واتخذ قدماً تنجيك يوم العِثار والزلل

الوجه الثاني: أنه درجة عالية، ومنزلة رفيعة، كما قيل:

لكم قدم لا يُنكر الناس أنّها
مع الحسب العالي طمَّت على البحر

الوجه الثالث: أنه مقام صدق، وثواب صدق على أعمالهم الصالحة، وأقوالهم الصادقة.

الوجه الرابع: جاء في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ مَنْزل صدق.

وجاء عنه أيضاً: أجراً حسناً بما قدموا مِنْ أعمالهم.

وجاء عنه أيضاً ﴿قَدَمَ صِدْقٍ﴾ سَبْق السعادة[1] لهم في الذكر الأول اهـ.

---

(١) انظر جميع ما تقدم في تفسير العلامة القرطبي، وفي (روح المعاني) وغيرهما.

وهذا كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾.

ويعنى بالذكر الأول: الكتاب الذي ذكر الله تعالى فيه مقادير الأشياء كلها.

روى الإمام مسلم، والترمذي وغيرهما، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أنْ يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء» كذا في (التيسير).

وقد فصلت الكلام على كتابة المقادير في كتاب (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) فارجع إليه تجد فيه ما ينفعك إن شاء الله تعالى.

الوجه الخامس: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ﴾ هو تقدُّمهم على غيرهم مِنْ سائر الأمم قبلهم في دخولهم الجنة، وأنهم المقضيّ لهم قبل الخلائق كلها[1].

روى الشيخان، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «نحن الآخرون ـ أي: من الأمم من حيث الزمن ـ السابقون يوم القيامة» الحديث.

---

(١) هذا وإن جميع هذه الوجوه حول تفسير: ﴿قَدَمَ صِدۡقٍ﴾ ثابتة وغير متناقضة، فهذا مِنْ باب القاعدة في علم أصول التفسير هو مِنْ باب التنوُّع، لا من باب التضادّ، كما هو مقرر عند المفسرين.

وفي رواية لمسلم: «نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة ، المقضيّ لهم قبل الخلائق».

وفي رواية لمسلم أيضاً: «نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ، ونحن أول مَنْ يدخل الجنة»[1] .

وروى الترمذي ، عن بُريدة رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ، ثمانون منها مِنْ هذه الأمة ـ أي: الأمة المحمدية ـ وأربعون من سائر الأمم»[2] .

وروى الطبراني بسند حسن ، عن عُمر رضي الله عنه ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الجنة حُرِّمتْ على الأنبياء حتى أدخلها ، وحُرِّمتْ على الأمم حتى تدخلها أمتي»[3] .

أول من يُفتح له باب الجنة هو
سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم
إمام الأنبياء والمرسلين وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين

روى الإمام مسلم ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح ، فيقول الخازن: مَنْ ، فأقول: محمد ، فيقول: بك أُمرتُ ـ أي:

---

(١) انظر (جامع الأصول).
(٢) ورواه الإمام أحمد في (المسند) بإسناد صحيح.
(٣) انظر (الخصائص) و(الفتح الكبير).

أمرني الله تعالى ـ أنْ لا أفتح لأحد قبلك» صلى الله عليه وآله وسلم.

فهو صلى الله عليه وآله وسلم أوّل من تفتح له الجنة ، وهو أوّل من يدخلها ، فهو الفاتح الأول صلى الله عليه وآله وسلم ، والكل يدخلونها مِنْ ورائه ، والأبواب مفتحة لهم ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ نعم لقد فتحها الفاتح الأول صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال الله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أي: والحال قد فتحت لهم أبوابها مِنْ قبل ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

اللهم اجعلنا منهم بجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد وصف النبي صلى الله عليه وآله وسلم أول زمرة يدخلون الجنة فمن بعدهم:

روى الشيخان ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن أوّل زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، ثم الذين يلونهم على أشدِّ كوكب دُرِّيّ في السماء إضاءة: لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يتفلون ، ولا يمتخطون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم ـ أي عرقهم ـ المسك ، ومجامرهم الألوَّة الألنجوج عود الطيب ، أزواجهم الحور العين ، على خُلُق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ، ستون ذراعاً في السماء» كذا في (التيسير).

وقال: الألوَّة والألنجوج: من أسماء العود الذي يُتبخّر به ا هـ.

وإن الشمس التي تُمد تلك الأقمار والكواكب ، ويُشرق عليها نورها، هي: الشمس المحمدية عليه أفضل الصلاة والسلام والتحية، فإن الله تعالى وصفه بقوله: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ .

فوصفه الله تعالى بأنه سراج منير ، كما وصف شمس السماء الفلكية بأنها سراج ، قال الله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ لكنه سبحانه فرّق بينهما بالأوصاف فقال في شمس السماء الفلكية: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾ فهي شديدة الوهج ، وقد يحصل مِنْ ذلك ضرر ، كما أنها يُستغنىٰ عنها مدة من الزمن ، فهي تَغْرُب ويدخل الليل ، والناس في غنى عنها لا حاجة لهم إليها.

وأما الشمس المحمدية ، فوصفه الله تعالى بقوله: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ والنور لا يحصل منه إلا الخير ، كما أنَّ النور لا يُستغنى عنه في كل وقت ، ولا في الليل ، ولذلك إذا أقبل الليل فإنّ الناس يُوقدون المصابيح ، فالعالم هو أحوج إلى الشمس المحمدية مِنْ حاجتهم إلى الشمس الفلكية ، فاعتبر أيها العاقل.

كما أنّ الشمس الفلكية قد يَعتريها الكسوف والتغير ، أما الشمس المحمدية فلا يعتريها كسوف ولا تغير ، فقول الله تعالى في وصفه لرسوله الأكرم ، وحبيبه الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، قول الله تعالى في وصفه: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ في هذا الوصف العظيم: دلالات وإشارات إلى معاني كبرى ، ومعارف كثيرة عظمى ، وفوائد جُلّى ، يفهمها أولوا الألباب.

وقد تكلمت بعض الكلام على ذلك في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة) وفي مناسبات متعددة في كتبي.

والحمد لله رب العالمين الذي جعلنا من أمته صلى الله عليه وآله وسلم ، ونسأل الله تعالى أنْ يوفقنا إلى العمل بشريعته ، والتمسك بالكتاب الذي جاء به ، وبسنته صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله تعالى وسنة نبيكم» صلى الله عليه وآله وسلم أبداً أبداً.

سادساً: البشائر الإلٓهية لعباده المؤمنين تجعلهم في أمانٍ مِنْ خوف ما يأتي ، وتذهب عنهم الحزن على ما مضى ، فهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون:

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾.

﴿ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ﴾ أي: وحده لا شريك له ، فهو ربنا خالقنا ورازقنا ، ومدبر أمورنا ، ومسبغ نعمه علينا ، وهو إلٓهنا الواحد الأحد ، المعبود حقاً ، الواجب على العباد أن يعبدوه وحده ، لأنهم عباده ، وهو ربهم وحده لا شريك له.

قال الله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أي: وخلق الذين من قبلكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

قـول الله تـعـالـــى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾

روى الإمام مسلم، عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: آمنت بالله ثم اسقتم».

فطلب سفيان بن عبد الله رضي الله عنه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنْ يعلمه كلاماً جامعاً لأمر الإسلام، كافياً شاملاً لا يحتاج بعده إلى غيره، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: آمنت بالله ثم استقم».

ورواه الترمذي بلفظ قال: قلت يا رسول الله حدّثني بأمر أعتصم به.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: ربي الله ثم استقم».

قلت: يا رسول الله ما أخوف ما تخاف عليَّ؟

فأخذ بلسان نفسه صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: «هذا» قال الترمذي: حسن صحيح. اهـ.

وجاء في رواية الإمام أحمد، والنسائي، عن سفيان بن عبد الله، أنَّ رجلاً قال يا رسول الله: مُرني بأمر في الإسلام ولا أسأل عنه أحداً بعدك ـ أي: كافياً كافلاً جامعاً ـ.

فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «قل: آمنت بالله ثم استقم».

قال: فما أتقي؟

فأومأ إلى لسانه.

والاستقامة هي: السير والسلوك على الصراط المستقيم، وهو الدين القويم، الذي جاء به سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين.

وهذا الصراط المستقيم هو الذي جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدل عليه، ويدعو إليه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾ أي: معرضون عنه، ومُبْعِدُون اتباعاً لأهوائهم وشهواتهم.

وقال الله تعالى: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾.

وهذا الصراط المستقيم الذي جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدل عليه، ويدعو إليه، هو الذي أمر الله تعالى عباده أن يسألوه التوفيق للسير عليه، سيراً مستقيماً، مِنْ غير اعوجاج ولا انحراف عنه، قال الله تعالى آمراً لعباده، ومعلماً لهم أن يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آمين.

وإن السير على الصراط المستقيم يتطلّب منَ السائر عليه أن يستقيم في سيره، فلو أنه انحرف عنه قدر شعرة، واستمرَّ على

ذلك ، لخرج عن الصراط المستقيم ، ووقع في المهالك والمتاهات.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وقد جاء عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ ـ وهو على المنبر ـ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ الآية فقال: (استقاموا ولم يروغوا روغان الثعلب)[1].

وقد تكلمتُ مفصلاً على الصراط المستقيم ، وعلى ما يتطلّبه السلوك عليه ، في (تفسير سورة الفاتحة) فارجع إليه.

تنبيه الإنسان إلى خطر اللسان

جاء في الحديث المتقدم ، الذي رواه الترمذي ، عن سفيان بن عبد الله وفيه: قال سفيان: يا رسول الله فما أخوف ما تخاف عليَّ؟

فأخذ صلى الله عليه وآله وسلم بلسان نفسه ثم قال: «هذا».

وفي حديث الإمام أحمد ، قوله صلى الله عليه وآله وسلم للرجل لما قال: فما أتقي؟

فأومأ صلى الله عليه وآله وسلم إلى لسانه.

في ذلك كله تنبيه لكل مسلم ومسلمة ، وتحذير مِنْ شر آفات اللسان ، وخطرها على الإنسان ، وأن الواجب على المسلم أن يتكلم بخير أو ليسكت.

---

(١) يقال في اللغة: راغ الثعلب روغاً وروغاناً إذا مال وحاد يَمنة أو يسرة.

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فليقل خيراً أو ليصمت ، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فليكرم جاره ، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فليكرم ضيفه».

فالإيمان يتطلب من المؤمن أَنْ يتكلم بما فيه الخير ، ويُمسك لسانه عما فيه فساد أو شر.

روىٰ الإمام أحمد في (مسنده) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «مَنْ صمت نجا».

وروى الطبراني ، عن أنس رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يبلغ عَبْد حقيقة الإيمان حتى يخزن من لسانه» أي: بأن يُمسك عن التكلم إلا بخير ، فإنَّ الإنسان مؤاخذ ومحاسب على كلامه ، كما جاء في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه وفيه قال معاذ: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: «على مناخرهم» ـ إلاّ حصائد ألسنتهم».

فالإنسان يحصد يوم القيامة ما يزرعه بلسانه في الدنيا ، فإن زَرع خيراً بكلامه حصد خيراً يوم القيامة ، وإنْ زرع بكلامه شراً لقيه يوم القيامة عذاباً وعقاباً.

روى الشيخان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة

ما يتبين ما فيها ـ أي: مما فيها من سخط الله تعالى ـ يزلُّ بها ـ أي: يهوي بها ـ في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب».

وروى الإمام أحمد، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنَّ الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأساً: يهوي بها سبعين خريفاً في النار».

أي: يهوي في نار جهنم عُمقاً يقدر بسبعين سنة ـ والعياذ بالله تعالى ـ.

وروى البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنّ العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى، لا يُلقي لها بالاً ـ أي: لا يعرف عظيم فضلها عند الله تعالى ـ يرفعه الله تعالى بها درجات، وإنّ العبد ليتكلم بالكلمة مِنْ سَخَط الله تعالى، لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم» أي: سبعين خريفاً كما تقدم.

وروى الإمام أحمد، والترمذي والنسائي، عن بلال بن الحارث رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إنَّ أحدكم ليتكلم بالكلمة مِنْ رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت ـ أي: من الفضل والثواب عند الله تعالى ـ فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم يلقاه ـ أي: فيلقاه الله تعالى وهو راض عنه، ونسأل الله تعالى ذلك ـ وإنَّ أحدكم ليتكلم بالكلمة مِنْ سخط الله تعالى، ما يظن أن تبلغ ما بلغت ـ من غضب الله تعالى وسخطه ـ فيكتب الله بها سخطه ـ أي: سخطه عليه ـ إلى يوم يلقاه» أي: وهو سبحانه ساخط عليه، والعياذ بالله تعالى من ذلك.

وقد ضمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة لِمَنْ حَفِظ لسانه ، وحفظ فرجه عن الحرام:

روى البخاري، والترمذي، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ ضمن لي ما بين لحيَيْـه ـ أي: لسانه ـ وما بين رجليه ـ أي: فرجه ـ أضمن له الجنة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ وقاه الله شرَّ ما بين لَحْييه ـ أي: لسانه ـ وشر ما بين رجليه ـ أي: فرجه ـ دخل الجنة» رواه الترمذي وحَسَّنه.

وصايـاه صلـى الله علـيـه وآلـه وسلم بـحفظ الـلسـان

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: يا رسول الله أوصني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اعبد الله كأنك تراه ، واعدُد نفسك في الموتى ، وإن شئت أنبأتك بما هو أمْلَكُ بها من هذا كله»؟ قال: «هذا» وأشار بيده إلى لسانه[1].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أوصني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أوصيك بتقوى الله تعالى؛ فإنها زين لأمرك كله».

قلت: يا رسول الله زدني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عليك بتلاوة القرآن ، وذكر الله عز وجلَّ ، فإنه ذكر لك في السماء ، ونور لك في الأرض».

---

(١) قال في (الترغيب): رواه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد ا هـ.

قلت: يا رسول الله زدني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «عليك بطول الصَّمت فإنَّه مطردة للشيطان، وعون لك على أمر دينك».

قلت: زدني.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وإيَّاك وكثرة الضحك، فإنه يُميت القلب، ويُذهب بنور الوجه».

قلت: زدني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «قُل الحقَّ وإنْ كان مُرّاً».

قلت: زدني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تخف في الله لومة لائم».

قلت: زدني.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «لِيَحجُزك عن الناس ـ أي: عن التكلم بالناس ـ ما تعلم من نفسك» أي: اشتغل بإصلاح أمور نفسك، وإكمال نقصها، وأعرض عن التكلم في الناس، وذكر مساويهم[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تُكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى، فإن كثرة

---

(١) قال في (الترغيب): رواه الإمام أحمد، والطبراني، وابن حبان في (صحيحه) والحاكم واللفظ له وقال: صحيح الإسناد ا هـ.

الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإنّ أبعد الناس عن الله تعالى القلب القاسي»[1].

تعليمه صلى الله عليه وآله وسلم أمته الدعاء بتسديد اللسان وصدقه

جاء في الحديث ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يُعلمنا أنْ نقول في الصلاة ـ أي: آخرها ـ:

«اللهم إني أسألك الثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد ، وأسألك شكر نعمتك ، وحُسْنَ عبادتك ، وأسألك لساناً صادقاً ، وقلباً سليماً ، وأعوذ بك مِنْ شر ما تعلم ، وأسألك مِنْ خير ما تعلم ، وأستغفرك مما تعلم»[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعو فيقول: «ربِّ أعني ولا تُعِن عليَّ ، وانصرني ولا تَنْصر عليَّ ، وامكر لي ولا تمكر عليَّ ، واهدني ويسِّر لي الهدىٰ ، وانصرني على مَنْ بغى عليَّ.

اللهم اجعلني لك شاكراً ، لك ذاكراً ، لك راهباً ، لك مطواعاً ، إليك مخبتاً ، إليك أوَّاهاً منيباً.

ربِّ تَقَبَّلْ توبتي ، واغسل حوبتي ، وأجب دعوتي ، وثبِّت

---

(١) رواه الترمذي والبيهقي.
(٢) رواه النسائي كما في (تيسير الوصول).

حُجَّتي ، واهد قلبي ، وسَدِّد لساني ، واسْلُل سخيمة قلبي»[1] .

وفي هذا تعليم لأمته صلى الله عليه وآله وسلم بأن يواظبوا على الدعاء به ، فجزى الله تعالى نبينا سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم ما هو أهله خيراً ، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعه علم الله العظيم .

ويرحم الله تعالى القائل :

أيا قمراً في مطلع الحُسن دائب
ويا شمس حُسن ما لَها قطُّ حاجبُ
ويا سَيّداً منه العلا والمواهب
إليك وإلاَّ لا تُشَدُّ الركائب
وعنك وإلاَّ فالمحدِّث كاذب
إذا شرب العُشَّاق من كل مشرب
وهاموا غراماً في سُليمىٰ وزينب
فإن غرامي فيك يا أيها النبي
وحبّك يا خير النبيين مذهبي
وللناس فيما يعشقون مذاهب

صلى الله عليه وعلى آله وسلم وعلينا أجمعين .

سابعاً: من أعظم النعم الإلٓهية على المؤمنين ، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو أولى بهم مِنْ أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم .

---

(١) قال في (الفتح الكبير) : رواه أحمد ، والحاكم .

قال الله تعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ۗ ﴾.

في هذه الآية الكريمة يُبين الله تعالى لعباده المؤمنين، موقف نبيه وحبيبه الأكرم، ورسوله المعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، يبين لهم موقفه معهم، وأنه أرحم بهم مِنْ أنفسهم، وأشدُّ رأفة وحناناً، وعطفاً وشفقة عليهم مِنْ أنفسهم، ومن آبائهم، وأمهاتهم اللاتي ولدنهم، كما تبين الآية الكريمة الحق الواجب عليهم؛ وذلك بأن يكون صلى الله عليه وآله وسلم أحبَّ إليهم مِنْ أنفسهم، ومن آبائهم وأمهاتهم، لأنه هو صلى الله عليه وآله وسلم أرحم بهم، وأعطف عليهم من أنفسهم، وآبائهم وأمهاتهم، فهذا أمر مُبرم ومَعْقُول محكم، وذلك بأن يكون أحب إليهم مِنْ آبائهم وأمهاتهم، والناس أجمعين.

وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُبين موقفه معهم، وأنه صلى الله عليه وآله وسلم هو أرحم وأرأف، وأشد حناناً وشفقة، وعطفاً عليهم من أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم، والناس أجمعين، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يُعلن ذلك في خطبه، ومجالسه صلى الله عليه وآله وسلم، وفي عدة مناسبات:

جاء في الحديث، عن جابر رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خطبنا: احمرَّتْ عيناه، وعلا صوته، واشتدَّ غضبه، كأنه منذر جيش يقول: «صبَّحكم ومسَّاكم»، ويقول «بُعثتُ أنا والساعة كهاتين» ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى، ويقول ـ أي: في خطبته صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «أمَّا بعد: فإنَّ خير الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هديُ

محمد ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ، وشرُّ الأمور مُحدثاتها ، وكل بدعة ضلالة»[1] .

ثم يقول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ: «أنا أولى بكل مؤمن مِنْ نفسه ، مَنْ ترك مالاً فلأهله ـ أي: ورثته ـ ومَنْ ترك ديناً أو ضياعاً فإليَّ وعليَّ»[2] .

وروى الإمام البخاري عند قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «ما مِنْ مؤمن إلاَّ وأنَـا أَوْلىٰ الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرأوا إنْ شئتم قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ فأيُّما مؤمن ترك مالاً فلْتَرِثْـه عصبته مَنْ كانوا ، وإن ترك ديناً أو ضياعاً[3] فليأتني فأنا مولاه» .

وروى الإمام أحمد في قول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ، عن جابر رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يقول: «أنا أولىٰ بكل مؤمن مِنْ نفسه ، فأيُّما رجل مات وترك ديناً ـ أي: مات وعليه دين ـ فإليَّ ـ أي: فأنا أوفِّي عنه ـ ومَنْ ترك مالاً فهو لورثته» .

ومما يزيد المؤمنين فرحاً وسروراً بقوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ

---

(١) هكذا الرواية هنا ، وقد جاء في حديث آخر: «وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار» .

(٢) قال الحافظ المنذري: رواه مسلم ، وابن ماجه وغيرهما . اهـ .

(٣) الضَّياع بفتح الضاد: العيال الفقراء ، وهو مصدر في الأصل كما في (النهاية) لابن الأثير .

﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنه صلى الله عليه وآله وسلم هو أولى بهم من أنفسهم في الدنيا والآخرة، كما تقدم في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما مِنْ مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة».

فما أعظم هذه البشارة، وما أكبر هذه النعمة والمنة الإلٓهية على عباده المؤمنين.

والحمد لله ربِّ العالمين، الذي جعلنا من أمته صلى الله عليه وآله وسلم، ونسأل الله العظيم، رب العرش العظيم أن يجعلنا من المتّبعين له، المتمسكين بكتاب الله الذي جاء به، وبسنته صلى الله عليه وآله وسلم، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله تعالى، وسنة نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم» آمين.

قول الله تعالى:
﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾

إذا علمت أيها الأخ المؤمن أنه صلى الله عليه وآله وسلم أولى بك مِنْ نفسك ـ أي: هو أرحم بك وأشفق، وأحَنَّ وألطف، وأعطف عليك مِنْ نفسك، وأبيك وأمك، والناس أجمعين كما تقدم ـ إذاً فالواجب عليك أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحبَّ إليك مِنْ نفسك، وأبيك وأمك، والناس أجمعين، كما بَيَّنَ لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك كله:

جاء في الحديث، عن أنس رضي الله عنه قال: سمعت

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه مِنْ والده، وولده، والناس أجمعين» أخرجه الشيخان، والنسائي.

وفي رواية أخرى للنسائي: قال صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه مِنْ ماله وأهله».

وقال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ الآية ـ أي: بل الواجب عليهم أن يرغبوا بنفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رغبة أعظم مُقدّمة على رغبتهم بأنفسهم، لأنه يجب عليهم أن يكون أحبَّ إليهم من أنفسهم.

روى الإمام أحمد في (مسنده)، أنَّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه مِنْ نفسه» الحديث، وأصله في (صحيح) البخاري.

قول الله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾

هذا من جملة فضائل الزوجات الطاهرات، وهذا من جملة ما شرَّف الله تعالى به أزواج نبيه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، ورفع مُستواهن على غيرهن في الكرامة والعزة، بأن جعلهن أمهات المؤمنين ـ أي: في وجوب[1] تعظيمهنَّ، والأدب معهنَّ،

---

(١) انظر تفسير الإمام القرطبي رحمه الله تعالى.

والإجلال لهنَّ ، والمبَرّة ، وحُرمة النكاح على الرجال[1] ، فرضي الله عنهن ، ونسأل الله تعالى أن يُرْضيهُنَّ عنا ـ آمين.

وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ دليل على كمال شَفَقَتهنَّ ، ورأفتهن ، ورحمتهن على وجهٍ يعلو ويفوق شفقة ورأفة ورحمة أمهات النسب الوالدات ، رضي الله عنهن وأرضاهن عنا.

وفي ذلك تكريم من الله تعالى لعباده المؤمنين ، فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أولى بهم مِنْ أنفسهم ، وأزواجه أمهاتهم ، والحمد لله رب العالمين.

محبة الصحابة
للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعشقهم له

روىٰ الشيخان واللفظ لمسلم[2] ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «ليأتينَّ على أحدكم يوم ولا يراني ـ أي : في الدنيا ـ ثم لأن يراني أحب إليه مِنْ أهله وماله معهم».

قال : فأَوَّلُوْه ـ أي : هذا الحديث ـ على أنه صلى الله عليه وآله وسلم نعىٰ نفسه إليهم ، وعَرَّفهم بما يحدث بعده ، من تمني لقائه عند فقدهم ما كانوا يُشاهدون مِنْ بركاته ، وأنواره صلوات الله تعالى عليه وسلامه.

---

(١) كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ الآية الكريمة.

(٢) كذا في (تيسير الوصول).

محبة المؤمنين
المحبين له صلى الله عليه وآله وسلم الذين جاؤوا مِنْ بعده

روى الإمام مُسلم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إنَّ مِنْ أشدِّ أمتي لي حباً: ناساً يكونون بَعدي ، يودُّ أحدهم لو رآني[1] بأهله وماله».

وروى مسلم وغيره ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أَنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنّا إنْ شاء الله بكم عن قريب لاحقون».

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «وَدِدتُ أنّا قد رأينا إخواننا»[2].

قالوا ـ أي: الصحابة ـ: أوَلسْنا إخوانك يا رسول الله؟!.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنْتم أصحابي ـ أي: أنتم إخواني وأصحابي ـ وإخواننا الذين لم يأتوا بعد» ـ أي: ما أتوا إلى الدنيا ، ولكن سيأتون بعده صلى الله عليه وآله وسلم.

قالوا: كيف تعرف مَنْ لَمْ يأت بعد مِن أمتك يا رسول الله؟.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أرأيتم لو أَنَّ رجلاً لَهْ خيل غُرٌّ محجَّلة[3] ؛ بين ظَهْرَيْ خيل دُهْم بُهم ألا يعرف خيله»؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

---

(١) أي: رؤية شهودية في عالم الدنيا.

(٢) أي: رأيناهم معنا في الدنيا.

(٣) الغُرَّة: بياض في الوجه ، والتحجيل: بياض في اليدين والقدمين.

قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإنَّهم يأتون ـ أي: يوم القيامة ـ غُرّاً مُحجَّلين[1] من الوضوء، وأنا فَرَطهم على الحوض».

والفَرَطُ هو: السابق المتقدم أمام القوم إلى الماء، ليستقبلهم، فهو صلى الله عليه وآله وسلم السابق إلى الحوض ليستقبل أمته المؤمنين، جعلنا الله تعالى منهم بفضله ورحمته تعالى.

روى الإمام مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تَرِدُ عليَّ أمتي الحوض، وأنا أذود الناس عنه، كما يَذود الرَّجُل إبلَ الرجل عن إبله».

قالوا: يا نبي الله تعرفنا ـ أي: من بين الأمم قبلنا ـ؟.

فقال صلىٰ الله عليه وآله وسلم: «نعم، لكم سيما ـ أي: علامة ـ ليست لأحد غيركم، تَردُون عليَّ غُرّاً مُحجَّلين من آثار الوضوء» الحديث[2].

اللهم اجعلنا مِنَ الورادين على حوضه، والسابقين إليه، واسقنا بكأسه الأوفى، وارزقنا مُرافقته ومعيته صلى الله عليه وآله وسلم في جميع العوالم، وفي أعلى الجنة جنة الخلد.

اللهم إنَّا نَسألك إيماناً لا يَرتدُّ؛ يزيد ولا ينقص، ونعيماً لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، ومرافقة نبيك سيدنا محمد صلى الله

---

(١) غُراً: جمع أغرَّ وهو: بياض شديد في وجوههم، والتحجيل: بياض في أيديهم وأقدامهم؛ من آثار الوضوء.
(٢) وقد تكلمت كلاماً مفصلاً على عالم الحوض في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها) فارجع إليه.

عليه وآله وسلم في أعلى الجنة جَنّة الخلد ، بجاهه عندك ، وبكرامته عليك ، وبتوجهاته إليك.

وصلِّ اللهم وسلم عليه ، وعلى آله وأصحابه ، وعلينا معهم أجمعين ، في كل لمحة ونفس عدد ما وسعهُ علم الله العظيم آمين.

فيا رب

فيا ربِّ بالخلِّ الحبيب محمد ﷺ — رسولك وهو السيد المتواضع
أنلنا مع الأحباب رؤيتك التي — إليها قلوب الأولياء تسارع
فبابك مقصود وفضلك زائد — وجودك موجود وعفوك واسع

ويا رب يا ربّ يا ربّ

إلى بابك العالي مَدَدتُ يد الرجا
ومَنْ جاء ذاك الباب لا يختشي الردى
سألتك يا ألله مستشفعاً بمن
ضيا وجهه الوَضَّاء يَبْرق في الدُّجى
صلى الله عليه وآله وسلم
فهب ليَ رضواناً وحَسِّن عواقبي
فأنتَ كريم لا تردُّ مَنِ التجا
وصلِّ إلٰهي كلَّ آنٍ ولمحةٍ
على خير رسْل الله هَدْياً ومنهجا
وآلٍ وصحبٍ يا إلٰهي وتابعٍ
وكلِّ مُحبٍّ للحبيب الأبلجا
صلى الله عليه وآله وسلم

وقد تم جمع هذا الكتاب بعون الله تعالى وتوفيقه ، وإحسانه وفضله ، في السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك سنة ١٤٢٠ هـ.

وإني لأسأل الله العظيم ، رَبَّ العرش العظيم ، بجاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذي الخلق العظيم ، أن ينفعني بجميع ما أكتبه ، وأن ينفع به عباد الله تعالى ، وأن يكون جميع ذلك مقبولاً ومرضياً عند الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم ، كما وأني أسال الله تعالى أنْ يغفر لي ويرحمني ، ولوالديّ ، وأن يكرم منزلتهما ، وأن يرفع درجاتهما ، وأنْ يجعلهما في أعلى مقامات أوليائه المقربين ، وأن يغفر ويرحم جميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات.

وصلى الله العظيم وسلم ، على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه ومحبيه وعلينا معهم أجمعين ، في كل لمحة ونفسٍ عدد ما وسعه علم الله العظيم ـ آمين.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحتوى

الموضوع | الصفحة

مقدمة الكتاب ٧
الكلام على الآيات الخمسة من أول سورة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ ٧
الوجه الأول: هذه الآيات أول ما نزل من القرآن الكريم ٧
ذكر حديث: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة) . ٨
بيان ما نزل بعد هذه الآيات الخمسة ١٠
الوجه الثاني: أمر الله رسوله سيدنا محمداً ﷺ أن يقرأ مفتتحاً باسمه تعالى ١٢
الله سبحانه تكفل بجمع القرآن في صدر سيدنا محمد ﷺ وأن يقرئه إياه وأن يبينه له ١٢
الكلام حول قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الآية ١٤
حَذّر الله تعالى من مخالفة أمر سيدنا محمد ﷺ ١٦
كما أمر الله تعالى بالأدب مع سيدنا محمد ﷺ ١٦
الوجه الثالث: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ وإن كنت أمياً فالله هو الذي يقرئك ١٧
بيان الحكمة من كونه ﷺ أمياً ١٧
الله تعالى تكفل بحفظ القرآن الكريم إلى يوم الدين ١٨
حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب هو من خصائص هذه الأمة ـ ذكر أدلة ذلك ٢١
لا يعذب الله تعالى قلباً وعىٰ القرآن ٢٢

الوجه الرابع: الله تعالى تعهد بعنايته الخاصة بسيدنا محمد ﷺ منذ صغره . ٢٤
بيان المراد بالقيام في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ مفصلاً . . . ٢٥
بيان فضل الركعتين قبل الفجر ٢٦
فائدة مهمة؟!!! ٢٧
ذكر الأدلة على عظيم إكرام الله تعالى لرسوله سيدنا محمد ﷺ وفيه الكلام حول سورة الضحى ٢٨
الكلام حول قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ ٢٩
الترغيب بكثرة السجود لله تعالى ٣١
الوجه الخامس: في قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ دليل قاطع على أن الله حق سبحانه ـ بيان ذلك مفصلاً ٣٢
الوجه السادس: بيان معاني الخلق في القرآن الكريم مفصلاً ٣٥
الوجه السابع: كل شيء إذا تفكر فيه الإنسان دلّه على وجود الله تعالى . ٣٨
الكلام حول قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية مفصلاً . . ٣٩
التفكر فيما خلق الله تعالى يفتح للعاقل باباً عظيماً لمعرفة قدرة الله تعالى . . ٤١
أمر سيدنا رسول الله ﷺ بالتفكر في آلاء الله تعالى ٤٢
الكلام حول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية . . ٤٣
الكلام حول قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ له وجوه ٤٤
الوجه الأول: حول سبب تسمية الإنسان بذلك ٤٤
الوجه الثاني: خُص الإنسان بالذكر من بين سائر المخلوقات لما أودعه الله تعالى فيه من عجائب قدرته ٤٥
الله تعالى شرف الإنسان وكرمه ـ بيان ذلك مفصلاً ٤٦
الوجه الثالث: في هذه الآية إقامة الحجة على الإنسان من نفسه ؟!!! . ٤٧
بيان الظلمات التي مَرَّت على خلق الإنسان وهو في بطن أمه ٤٨
الكلام حول قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ ٤٨
في هذه الآية الكريمة بيان عظيم فضل الله تعالى على سيدنا محمد ﷺ . ٤٨

وصف الله تعالى رسوله سيدنا محمداً ﷺ في جميع الكتب السماوية بأنه النبي الأمي ـ أدلة ذلك ٥٠
كذلك وصف الله تعالى أصحاب رسوله سيدنا محمد ﷺ وأثنىٰ عليهم . ٥٢
جاء سيدنا محمد ﷺ بنور عظيم من عند الله تعالى ٥٤
الكلام حول قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ٥٦
الكلام حول قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥٦
سيدنا محمد ﷺ أعلم خلق الله بالله تعالى وأشدهم له خشية ٥٧
الكلام حول قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٦٠
الكلام حول قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ له وجوه . ٦٠
الوجه الأول: وفيه بيان وقت النزول، وأن ترتيب الآيات توقيفي ... ٦٠
الوجه الثاني: في بيان معنى (كَلَّا) مفصلاً ٦١
الوجه الثالث: في هذه الآيات تأكيد صدق نبوة سيدنا محمد ﷺ حيث أتىٰ بهذا القرآن المعجز مع أنه ﷺ أمي ٦٣
ذكر خبر استماع ثلاثة من عظماء قريش إلى قراءة النبي ﷺ سراً؟!! .. ٦٥
معجزات سيدنا رسول الله ﷺ عظيمة وكثيرة تدل على صدقه عليه الصلاة والسلام ٦٧
الوجه الرابع: سيدنا محمد ﷺ هو بينة الله الكبرى ـ بيان ذلك مفصلاً . ٦٩
بيان رفعة وشرف وعلو مكانة القرآن الكريم ٧٠
تنبيه كل مسلم إلى تعظيم كتاب الله تعالى والإكثار من تلاوته ٧٢
التحذير من ترك العمل بما جاء به القرآن الكريم ٧٣
وصف الله تعالى رسوله سيدنا محمداً ﷺ بأنه برهان ـ بيان ذلك مفصلاً مع الأدلة ٧٥
الكلام حول قول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ ٧٨
الكلام حول قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ له وجوه .. ٨٢
الوجه الأول: في سبب النزول ٨٢
الوجه الثاني: بيان المراد من ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ والمراد من ﴿عَبْدًا﴾ ٨٣

وصف الله سيدنا محمداً ﷺ بأنه عبد وهذا من باب التشريف والتكريم
ـ ذكر أدلة ذلك مفصلاً ٨٣
وقد وصف الله تعالى أنبياءه وأولياءه بأنهم عباده ـ ذكر أدلة ذلك ٨٧
ووصف سبحانه المؤمنين الصادقين بأنهم عباده ٨٨
بيان عاقبة الأخلاء يوم القيامة ٩٠
سيدنا محمد ﷺ هو نعمة الله تعالى الكبرى ورحمته العظمىٰ ٩٢
ذكر حديث خطبة النبي ﷺ من بعد صلاة الفجر إلى المغرب وبيان ما فيه
من المعجزات وخوارق العادات ٩٦
رغب سيدنا محمد ﷺ في التبليغ عنه وبين عظم أجر ذلك ٩٧
الوجه الثالث: وفيه بيان أن العبودية حق لله تعالى ٩٩
الكلام حول قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ له وجوه ١٠٠
الوجه الأول: في هذه الآية الكريمة توبيخ وتقريع لأبي جهل ١٠٠
الوجه الثاني: في بيان معنى التقوىٰ ١٠١
التقوى هي وصية الله تعالى لجميع خلقه ١٠٢
التقوىٰ وصية سيدنا رسول الله ﷺ لأمته عامّة وخاصة ١٠٢
والتقوى وصية الصحابة بعضهم لبعض ١٠٣
فضائل التقوى والمكرمات المرتبة عليها ١٠٤
١ ـ من أراد الولاية فعليه بتقوى الله تعالى ـ وفيه بيان ما يبشر الله
تعالى به أولياءه ١٠٤
٢ ـ من أراد النصر والتأييد الإلٓهي فعليه بتقوى الله تعالى ١٠٧
٣ ـ من أراد الخروج من المضايق والشدائد فعليه بتقوى الله تعالى ١٠٨
٤ ـ من أراد أن يجعل الله له نوراً يفرق به بين الحق والباطل فعليه
بالتقوى ١٠٩
٥ ـ ومن أراد حسن العواقب فليزم تقوى الله تعالى ١٠٩
الكلام حول قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية ١٠٩

٦ ـ كرامة العبد عند الله تعالى على حسب تقواه ١١١
أتقى خلق الله تعالى هو سيدنا محمد ﷺ ١١٢
مراتب التقوى: ١١٥
١ ـ تقوى الكفر والشرك ١١٥
٢ ـ تقوى المحرمات ١١٦
٣ ـ اتقاء الشبهات ١١٦
٤ ـ اتقاء ما لابأس به خشية الوقوع فيما به بأس ١١٦
٥ ـ تقوى الله حق تقاته ١١٧
الكلام حول قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ ١١٩
الكلام حول قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ مفصلاً ١٢٠
الكلام حول قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ مفصلاً ١٢١
الكلام حول قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ ١٢٢
بيان سبب نزولها ، معنى النادي ، من هم الزبانية ، ثم بيان واحد هذه الكلمة ١٢٢
أمر الله تعالى بوقاية النفس والأهل نار جهنم ١٢٣
وأمر ﷺ بأمر الأولاد بالصلاة وهم أبناء؟ ١٢٣
بيان وقود نار جهنم ، وبيان حال زبانيتها ـ أعاذنا الله منها ١٢٥
الكلام حول قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ ١٢٦
تكفل الله تعالى بحفظ رسوله سيدنا محمد ﷺ من شر وأذى أعدائه ـ بيان ذلك مفصلاً ١٢٧
الكـلام حول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الآية ١٢٩
ذكر قصة خروجه ﷺ من بيته إلى غار ثور ليلة الهجرة ، وما حدث في ذلك ١٣٠
بيان صاحب البردة وإشارته إلى قصة الغار ١٣٤
الله تعالى حمى رسوله سيدنا محمداً ﷺ من سُراقة ليلة الهجرة ـ ذكر القصة مفصلة ١٣٤

الله تعالى عصم رسوله سيدنا محمداً ﷺ عن كل ما يمنه من تبليغ الرسالة
ـ بيان ذلك مفصلاً ١٣٩
وقايـة الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ من سُمِّ الشاة التي أهداها له اليهود . ١٤١
ومن ذلك ما وقع في غزوة ذات الرقاع؟!! ١٤٣
ومـن ذلـك عصمة الله تعالـى لسيدنـا محمـد ﷺ من مكـر المنافقين .. ١٤٥
وأيضاً عصمته ﷺ من شيبة بن عثمان قبل إسلامه ١٤٧
وعصمته ﷺ من النضر بن الحارث ١٤٧
وقاية الله تعالى لسيدنا محمد ﷺ شر أعدائه ومن ذلك ما جاء في قصـة امـرأة
أبـي لهـب ـ بيان ذلك مفصلاً مع بيان نزول هذه السورة ١٤٨
ذكر قصة سؤال أبي جهل عن سيدنا رسول الله ﷺ واعترافه بأنه صلى الله
عليه وآله وسلم الصادق الأمين ١٥٢
ذكر خبر مجيء الوليد بن المغيرة إلى سيدنا رسول الله ﷺ وما حدث في
ذلك ١٥٣
ذكر خبـر عتبـة بن ربيعـة وما حـدث منـه عنـد سماعـه القـرآن من سيدنـا
رسول الله ﷺ ١٥٥
الكلام حول قوله تعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ ١٥٨
القرب على مراتب ـ وبيان قرب الأنبياء والملائكة والأولياء ١٥٩
أقرب المقرَّبين هو سيدنا رسول الله ﷺ ـ ذكر أدلة ذلك ١٥٩
بيان فضل السجود وعظيم أثره في التقرب إلى الله تعالى ١٦١
الكلام حول قولـه تعالـى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ مفصلاً . ١٦٤
التسبيح والتهليل والتكبير تذكِّرُ بصاحبها؟!! ١٦٥
بيان أنواع رفع الأعمال إلى الله تعالى مع الدليل المفصل ١٦٦
أمره ﷺ بالدعاء في السجود ١٦٨
بعض الأدعية الواردة في السجود ١٦٨

بعض الأدعية الواردة بين السجدتين ١٧٠
بيان آي السجدة ـ وكيفية سجود التلاوة وحكمه مفصلاً ١٧١
فائدة مهمة؟!! ١٧٣
سجود الشكر ـ دليله ـ حكمه ـ كيفيته ١٧٣
فضائل الأسحار ١٧٦
الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ الآيات الكريمة ١٧٦
بيان أنواع الصبر ١٧٦
كيف عَلَّمَ سيدنا رسول الله ﷺ من لم يحسن الصلاة ١٧٧
بيان أسوأ الناس سرقة؟!! ١٧٨
الحث على الصبر عن المحرمات ١٧٨
الحث على الصبر على البلاء والمصائب ١٧٩
بيان أنواع الصدق ـ والترغيب في الصدق ١٨٠
بيان فضل المداومة على الصدق في الدنيا والآخرة ١٨١
الحث على النيات الصالحة وما جاء في فضلها ١٨٢
بيان أحوال القانتين والمنفقين ١٨٥
الترغيب بالصدقة وما جاء في فضلها مفصلاً ١٨٦
الكلام حول قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ مفصلاً مع الأدلة المطولة ١٨٨
الترغيب في العبادة عند الفتن وفساد الزمان ١٩٤
كلمة نفيسة للسيد الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه وعنا به ١٩٦
بيان موقف المؤمنين عند التحاكم إلى الله ورسوله ﷺ ١٩٧
فائدة بكل خير عائدة ٢٠٠
لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد ٢٠٠
أكثر من تلاوة القرآن الكريم ما استطعت ٢٠٢

بيان الأجر العظيم المترتب على قراءة القرآن الكريم ٢٠٣
مَنْ أراد أن يكون مِنْ أهل الله وخاصته فليكثر من قراءة القرآن الكريم . ٢٠٤
الترغيب بالدعاء عند ختم القرآن الكريم وذكر جملة من الأدعية ٢٠٥
التحذير الشديد من ترك العمل بالقرآن الكريم ٢٠٦
بيان معنى البشارة ولمن تكون ٢٠٩
بَشَّر الله تعالى عباده المؤمنين بأنواع من البشائر وفي ذلك حكم عالية
منها: ٢١٠
١ ـ يزداد نشاط المبشرين في طاعاتهم وقرباتهم إلى الله تعالى . ٢١٠
٢ ـ يزيدهم الله تعالى إيماناً مع إيمانهم ٢١٠
٣ ـ يدخل السرور على المبشرين لفرحهم بفضل الله تعالى ٢١٠
سيدنا محمد ﷺ هو رحمة الله تعالى الكبرى ٢١٢
فرح سيدنا أبيّ بن كعب رضي الله عنه بل بكاؤه من الفرح بـ؟!! ٢١٣
٤ ـ البشائر الإلّهية تطمئن لها القلوب ، وتنشرح لها الصدور ٢١٤
٥ ـ البشائر الإلّهية للمؤمنين تزيد في إيمانهم ٢١٤
الكلام المفصل حول قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ . ٢١٥
أول من يفتح باب الجنة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ٢١٧
بيان صفة أول زمرة يدخلون الجنة ٢١٨
الناس أحوج إلى الشمس المحمدية من حاجتهم إلى الشمس الكونية
بيان ذلك مفصلاً ٢١٩
٦ ـ البشائر الإلّهية تجعل المؤمنين في أمان من الخوف مما يأتي ٢٢٠
الحث على الاستقامة وبيان آثارها ٢٢١
تنبيه الإنسان إلى خطر اللسان ٢٢٣
وصايا سيدنا رسول الله ﷺ بحفظ اللسان ٢٢٦
تعليمه ﷺ أمته الدعاء بتسديد اللسان وصدقه ٢٢٨

٧ ـ من أعظم النعم على المؤمنين أن النبي ﷺ أولى بهم من
أنفسهم وهو بحث نفيس ينبغي الاطلاع عليه ٢٢٩
الواجب على المؤمن أن يكون سيدنا رسول الله ﷺ أحب إليه من نفسه ٢٣٢
بيان جملة من فضائل أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن ٢٣٣
محبة الصحابة للنبي ﷺ ٢٣٤
محبة المؤمنين لكل مؤمن إلى يوم القيامة ٢٣٥
المحتوى ٢٣٩

ونسأل الله تعالى حسن الختام وأن يجعلنا من أمة سيد الأنام
سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فضلاً منه وكرماً ـ اللهم آمين
والحمد لله رب العالمين

كتب للمؤلف

- حول تفسير سورة الفاتحة ـ أم القرآن الكريم.
- حول تفسير سورة الحجرات.
- حول تفسير سورة قٓ.
- حول تفسير سورة الملك.
- حول تفسير سورة الإنسان.
- حول تفسير سورة الكوثر.
- حول تفسير سورة ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾.
- حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها.
- هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان.
- هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان.
- تلاوة القرآن المجيد ـ فضائلها ـ آدابها ـ خصائصها.
- شهادة لا إلَه إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ فضلها ـ معانيها ـ مطالبها.
- سيدنا محمد رسول الله ﷺ ـ خصاله الحميدة ـ شمائله المجيدة.
- الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
- التقرب إلى الله تعالى: فضله ـ طريقه ـ مراتبه.
- الصلاة في الإسلام: منزلتها في الدّين ـ فضائلها ـ آثارها ـ آدابها.
- الصلاة على النّبي ﷺ: أحكامها ـ فضائلها ـ فوائدها.
- صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
- الدعاء: فضائله ـ آدابه ـ ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات.
- الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها.
- الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن.
- شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث.
- أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات.

وكلها تطلب من مكتبة دار الفلاح حلب:

أقيول أمام جامع أسامة بن زيد

هاتف ٣٦٣٩٣٠٠ ـ ٣٦٢٣٧٥٧